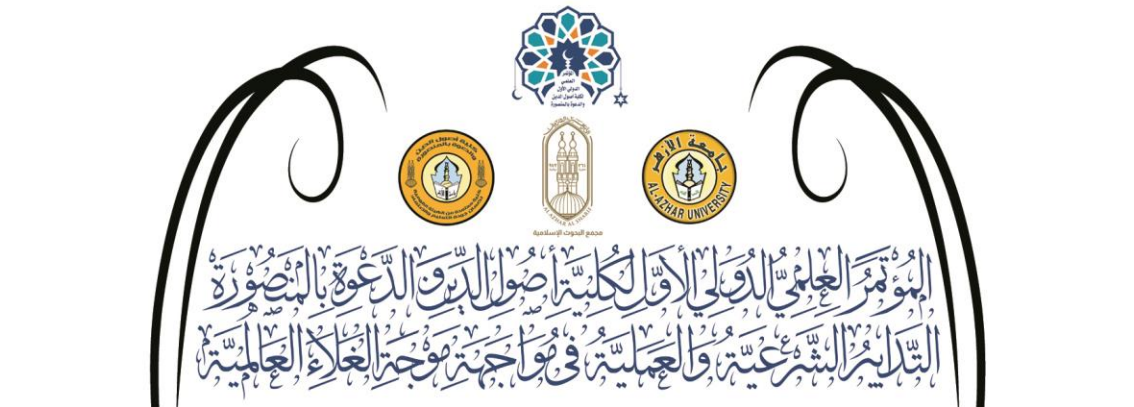

مواجهة الأزمات والضغوط في ضوء الإسلام

بحثٌ مُقدَّمٌ إلى

المُؤتمَرِ الدَّوليّ الأوَّل لكليَّةِ أُصول الدِّين والدَّعوةِ بالمنصورة

بعنوان

التَّدابير الشَّرعيَّة والعَمَليَّة في مُواجهة مَوجةِ الغلاءِ العالميَّة

الأحد ٣ مارس ٢٠٢٤ م

إعداد

الأستاذ الدكتور/ شوقي إبراهيم علي عبد الله

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، جامعة الأزهر

ملخص البحث باللغة العربية

مواجهة الأزمات والضغوط في ضوء الإسلام

شوقي إبراهيم علي عبد الله

قسم العقيدة والفلسفة، كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، المنصورة، مصر.

البريد الإلكتروني: shawky.Ebrahim@azhar.edu.eg

الملخص:

ترتبط مواجهة الأزمات والضغوط بعلم الإدارة والتخطيط الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمنهج الإسلامي، إن للإدارة الحكيمة أسسا تميزها عن غيرها من القواعد الوضعية، فهي تسير وفق منهجية محددة للوصول إلى المطلوب السامي، فالغاية في الإدارة الإسلامية لا تبرر الوسيلة، كما أن السعي لتحقيق أهداف مشروعة تتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية من أهم خصائصها، ولعل السمة الأبرز التي تميز الإدارة الإسلامية، أنها تسعى لتقديم النفع لجميع الناس، دون التمييز بينهم على أساس العرق أو الدين، أو اللون ونحوها، فضلًا عن أنها تحقق الرقابة الذاتية النابعة من مخافة الله، حيث إن الإخلاص والإتقان والأمانة جميعها نابعة من العقيدة الصافية التي ربى الإسلام أتباعه عليها.

ولم يدخر علماء الإسلام جهدا في البحث والتنظيم لعلم الإدارة الناجح، ولا سيما في وقت الأزمات والضغوطات الحياتية والمجتمعية، وركزوا على الجودة، وحسن التنظيم والترتيب الذي لا يكون إلا في إطار منظومة متكاملة تحتوي عناصر الأركان الأساسية للعملية الإدارية؛ ليصلوا إلى تعريف شامل لهذه العملية بقولهم: هي العملية التي تتمتع بمقومات العلم والإيمان التي تمكن القادة والأتباع من أداء وظائفهم المناطة بهم على أكمل وجه لإعمار الأرض.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، **التمهيد** في: الحكمة من التعامل في ظل الضغوط، وكيفية التعامل، **والمبحث الأول في**: أنواع الأزمات والضغوط، وآلية

معالجتها واحتوى على عدد من المطالب، المطلب الأول: أزمة التلاعب بالأسعار، والمطلب الثاني: ضغط موت عزيز، والمطلب الثالث: أزمة المرض، والمطلب الرابع: أزمة العنوسة، والمطلب الخامس: الضغوطات والأزمات الاجتماعية، والمطلب السادس: الأزمات العقلية، وأما **المبحث الثاني ففي**: استراتيجيات التعامل مع ضغوطات الحياة، وفيه عدد من المطالب؛ المطلب الأول: مواجهة التعامل مع ضغوط الحياة، و المطلب الثاني: الحكمة الإلهية في العطاء والمنع، **وأما المبحث الثالث ففي**: آليات مواجهة الأزمات والضغوط، وفيه عدد من المطالب؛ المطلب الأول: ترتيب الأولويات وأثره وأهمية التخطيط في حياة الأفراد والمجتمعات، المطلب الثاني: أثر الفرد في نهضة الأمم لمواجهة الأزمات والضغوط النفسية والمالية، وذيلت البحث بخاتمة ضمنتها أهم ما ورد في البحث.

الكلمات المفتاحية: الكلمات المفتاحية: مواجهة، الأزمات والضغوط، ضوء الإسلام.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية

Facing crises and pressures in the light of Islam

Shawqi Ibrahim Ali Abdullah
Department of Creed and Philosophy, Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wah, Al-Azhar University, Mansoura, Egypt.
Email: shawky.Ebrahim@azhar.edu.eg

Summary:

Confronting crises and pressures is linked to the science of management and planning, which is closely linked to the Islamic approach. Wise management has foundations that distinguish it from other man-made rules. It proceeds according to a specific methodology to reach the lofty goal. The end in Islamic management does not justify the means, and striving to achieve legitimate goals is consistent with With the objectives of Islamic law, one of its most important

characteristics, and perhaps the most prominent feature that distinguishes Islamic administration, is that it seeks to provide benefit to all people, without distinguishing between them on the basis of race, religion, color, or the like, as well as that it achieves self-censorship stemming from the fear of God, as sincerity Perfection and honesty all stem from the pure faith upon which Islam raised its followers.

Islamic scholars have spared no effort in researching and organizing the science of successful management, especially in times of crises and life and societal pressures. They have focused on quality, good organization and arrangement, which can only be achieved within the framework of an integrated system that contains the elements of the basic pillars of the administrative process. They arrived at a comprehensive definition of this process by saying: It is the process that has the elements of knowledge and faith that enable leaders and followers to perform their assigned duties to the fullest extent to populate the earth.

The nature of the research required that it be divided into an introduction, an introduction, and four chapters. The introduction is about: the wisdom of dealing under pressures and how to deal with them, and the first section is about: types of crises and pressures, and the mechanism for dealing with them. It contained a number of demands. The first requirement: the crisis of price manipulation, The second requirement: the pressure of the death of a loved one, the third requirement: the crisis of illness, the fourth requirement: the crisis of spinsterhood, the fifth requirement: social pressures and crises, and the sixth requirement: mental crises, and the second section covers: Strategies for dealing with life pressures, and it contains a number of demands. The first topic: coping with the pressures of life, the second topic: divine wisdom in giving and withholding, and the third topic: mechanisms for confronting crises and pressures, and it contains a number of demands; The first requirement: The arrangement of

priorities, its impact, and the importance of planning in the lives of individuals and societies. The second requirement: The impact of the individual in the renaissance of nations to confront crises and psychological and financial pressures. The research was concluded with a conclusion that included the most important things mentioned in the research.

Keywords: Confrontation, Crises and pressures, Vision of Islam.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرُف: ٣٢]، وهذه الآية هي الأصل المتين لعلم الإدارة ومنهجيته حسب العديد من آراء علماء الإدارة وروَّادها، حيث ارتبط علم الإدارة والتخطيط ارتباطًا وثيقًا بمنهج العقيدة والشريعة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأدرك الجميع ممن يعملون في هذا الميدان، أن أحكام الشريعة السمحة هي بمثابة علم سيال في جميع المعاملات المعاصرة بمختلف مسمياتها، فطريقة إدارة الأمور في الإسلام منهجية، وتسير على أسس ثابتة منذ انطلاقة دعوة رسول الله ﷺ، التي لا عوج فيها، فمنذ التجمع الأول للمسلمين، أصبح أمرهم على هيئة منظومة محكمة تدير هذه الدولة الناشئة.

إن للإدارة الحكيمة أسسا تميزها عن غيرها من القواعد الوضعية، فهي تسير وفق منهجية سياحة للوصول إلى المطلوب السامي، فالغاية في الإدارة الإسلامية لا تبرر الوسيلة، كما أن السعي لتحقيق أهداف مشروعة تتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية من أهم خصائصها، ولعل السمة الأبرز التي تميز الإدارة الإسلامية، أنها تسعى لتقديم النفع لجميع الناس، دون التمييز بينهم على أساس العرق أو الدين، أو اللون ونحوها، فضلا عن أنها تحقق الرقابة الذاتية النابعة من مخافة الله، حيث إن الإخلاص والإتقان والأمانة جميعها نابعة من العقيدة الصافية التي ربى الإسلام أتباعه عليها.

لم يدخر علماء شريعتنا الغراء جهدا في البحث والتنظيم لعلم الإدارة الناجح، ولا سيما في وقت الأزمات والضغوطات الحياتية والمجتمعية، وركزوا على الجودة، وحسن التنظيم والترتيب الذي لا يكون إلا في إطار منظومة متكاملة تحتوي عناصر الأركان الأساسية للعملية الإدارية؛ ليصلوا إلى

تعريف شامل لهذه العملية بقولهم: هي العملية التي تتمتع بمقومات العلم والإيمان التي تمكن القادة والأتباع من أداء وظائفهم المناطة بهم على أكمل وجه لإعمار الأرض.

ولا ريب أن العمل إذا كان يجمع الشعور بالمراقبة الإلهية، وحسن التنظيم وإتقان العمل سينتج منظومة ناجحة تستطيع أن تدير العمل والأمور؛ لتصل إلى أسمى النتائج الموجودة حتى في أحلك الظروف لأنها بنيت على أساس من الإخلاص والصدق، فالإسلام هو منهج الحياة المتكامل الذي يجمع الركنين الأساسين لأي عمل ناجح، وهما: الإخلاص والإتقان، وجاء هذا البحث للمشاركة في مؤتمر كلية أصول الدين جامعة الأزهر بمشاركة مجمع البحوث الإسلامية، بإشراف فضيلة الأستاذ الدكتور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول.

التمهيد: الحكمة من التعامل في ظل الضغوط، وكيفية التعامل.

الفصل الأول: أنواع الأزمات والضغوط، وآلية معالجتها، وفيه مباحث:

المبحث الأول: أزمة التلاعب بالأسعار.

المبحث الثاني: ضغط موت عزيز.

المبحث الثالث: أزمة المرض.

المبحث الرابع: أزمة العنوسة.

المبحث الخامس: الضغوطات والأزمات الاجتماعية.

المبحث السادس: الأزمات العقلية.

الفصل الثاني: استراتيجيات التعامل مع ضغوطات الحياة، وفيه مباحث:

المبحث الأول: مواجهة التعامل مع ضغوط الحياة.

المبحث الثاني: الحكمة الإلهية في العطاء والمنع.

الفصل الثالث: آليات مواجهة الأزمات والضغوط، وفيه مباحث:

المبحث الأول: ترتيب الأولويات وأثره وأهمية التخطيط في حياة الأفراد والمجتمعات.

المبحث الثاني: أثر الفرد في نهضة الأمم لمواجهة الأزمات والضغوط النفسية والمالية.

وذيلت البحث **بخاتمة** ضمنتها أهم ما ورد في البحث.

وكان الفراغ من كتابة هذا البحث بحول الله وقوته يوم الأحد ٢٥ فبراير ٢٠٢٤ ميلادي الموافق يوم الأحد ١٥ شعبان ١٤٤٥ هجري، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أ. د/ شوقي إبراهيم علي عبد الله

أستاذ العقيدة والفلسفة في كلية

أصول الدين والدعوة بالمنصورة،

وعميد الكلية الأسبق

التمهيد: الحكمة من التعامل في ظل الضغوط، وكيفية التعامل.

الحياة الدنيا مزرعة الآخرة، وهي الدار الأولى التي نحيا فيها ونسعى بها قبل أن ننتقل إلى الدار الآخرة التي هي دار الحساب والجزاء، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]، ونحن لا نستطيع أن نحيا هذه الحياة الدنيا كما ينبغي إلا بعد أن نعرف طبيعتها وخصائصها، ونحسن الاستعداد لذلك بما يلزم من أمور معرفية وسلوكية، فنفهم طبيعة الحياة وأزمات الحياة.

وأول ما يلزمنا للتعامل مع أزمات الحياة أن نعرف طبيعة هذه الحياة هل هي دار مقر أم ممر؟ دار جزاء أم اختبار؟ دار تكريم ورفاهية أم سعي وجد؟ ميسرة مذللة أم مليئة بالمتاعب محاطة بالهموم والأكدار؟

للأسف كثيرون يتعاملون مع الحياة على غير طبيعتها فيطلبون منها الكمال والراحة والسكينة والطمأنينة، وكأنها جنة الخلد ودار الجزاء لا دار العمل والامتحان والابتلاء، وقد أرشدنا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى طبيعة هذه الحياة وإلى طبيعة وجودنا بها كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ١، ٢]، وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤].

قال الحسن: يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء، ولا يخلو من أحدهما، ويكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال ابن قتيبة: في شدة ومكابدة لأمور الدنيا والآخرة، فعلى هذا يكون من مكابدة الأمر وهي معاناته(١).

---

(١) ابن قتيبة، زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي. ج ٤ ص ٤٤٧.

فالإنسان خلق في تعب ونصب ومشقة، والحياة مجرد محطة، وقد جعلت للاختبار والابتلاء والامتحان، فهي إذن ليست دارا للخلود ولا للجزاء ولا للعدل التام.

وفهم طبيعة الحياة وما تتصف به يجعلنا أكثر قدرة على التعامل لها والاستعداد لتقلباتها وعدم اليأس والضجر مما يصيبنا فيها من نزول مكروه أو فوات محبوب، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣].

الاستمتاع بالرحلة:

مما قيل في فن التعامل مع الضغوط: إن عليك ألا تنتظر محطة الوصول لتبدأ الرحلة بل ابدأ الرحلة من بداية الطريق، فإن الطريق إلى الرحلة جزء من الرحلة استمتع بما في الطريق من محطات عقبات وكبوات، وفي الحياة استمتع بكل ما فيها واعتبر أن الضغوط جزء من الرحلة، وأن قدرتك على مواجهة الصعاب بها من اللذة ما لا يقل عن اللحظة النهائية.

لو كانت الحياة نعيما لا ينفد، وراحة لا تتعكر، وهدوءا لا يقطعه شغب، لما كانت حياة ولفقدت طبيعتها وخصائصها، الحياة هكذا حال يسعدك وآخر يحزنك، أمر تسر به وثان تساء منه، فلا تجزع ولا تيأس وعود نفسك على احتمال المشاق ومواجهة ما لا تألف، وقد قال أبو فراس الحمداني[1]:

الدَهرُ يَومانِ ذا ثَبتٌ وَذا زَلَلُ ... وَالعَيشُ طَعمانِ ذا صابٌ وَذا عَسَلُ

كَذا الزَمانُ فَما في نِعمَةٍ بَطَرٌ ... لِلعارِفينَ وَلا في نِقمَةٍ فَشَلُ

سَعادَةُ المَرءِ في السَرّاءِ إِن رَجَحَت ... وَالعَدلُ أَن يَتَساوى الهَمُّ وَالجَدَلُ

وَما الهُمومُ وَإِن حاذَرتَ ثابِتَةٌ ... وَلا السُرورُ وَإِن أَمَّلتَ يَتَّصِلُ

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٨٣، ١٨٤.

فَمـــا الأَســـى لِهُمـــومٍ لا بَقـــاءَ لَهـــا وَمـــا السُـــرورُ بِنُعمـــى سَـــوفَ تَنتَقِـــلُ

لَكِـــنَّ في النـــاسِ مَغـــروراً بِنِعمَتِـــهِ مـــا جائَـــهُ اليَـــأسُ حَتّـــى جائَـــهُ الأَجَـــلُ

النظر إلى الفرص:

مما يليق بنا عند مواجهة التحديات والضغوط أن ننتظر ما فيها من فرص، وقد دلتنا تجارب الحياة كما عايشها كثير من الأدباء وأصحاب الخبرات أن كل تحد فيه فرصة، وأن كل مشكلة لا تمثل بالضرورة خطوة إلى الوراء، بل ربما صح العكس إذا ما أحسنا التعامل مع هذه التحديات وتلك المشكلات، إذا مررت بضائقة مالية بسبب ارتفاع الأسعار كان ذلك سببا في أن تعيد التفكير في جدول نفقاتك ومصادر دخلك، وإذا فقدت وظيفتك فربما دفعك هذا للبحث عن وظيفة أخرى أفضل منها أو تغير مجال عملك من الأساس وتتنبه على فرص حولك لم تلتفت لها من قبل.

وإذا ضُيِّق عليك في مكان فلربما تعرفت على مكان جديد، وتتفتح لك عوالم أرحب وهكذا، من المهم أن ننظر لكل تحد على أنه فرصة لتتعلم خبرات جديدة واكتساب مهارات إضافية، وهذا لا شكَّ يتطلب مرونة في التفكير وفي تغيير العادات وأنماط العيش، وأيضا قدرة على تعلم الجديد وعدم الوقوف عند حدود ما تعرف من تجارب وخبرات.

التخفف من الماديات[1]:

بوجه عام، علينا أن نخفف في حياتنا الماديات وألا نثقل كاهلنا بالديون أو الأقساط التي تفوق قدرتنا المالية أو تستغرق كل دخلنا.

الموقف المالي للإنسان مهم جدًا في تنظيم بقية جوانب حياته والتأثير فيها، ولهذا عليه أن يحرص على ألا يكون ذلك عبئا عليه، وإنما ينظم دخله ويرتب احتياجاته بحيث متى تعرض لأزمة

(١) انظر: مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٧١، لسنة ١٩٦١م، صفر ١٣٤٥ هـ، صـ ٣٥.

مفاجئة أو حدث له تطور خارج عن إرادته استطاع أن يتعامل معه وهو غير واقع تحت ضغوط، كما أننا عند الأزمات يجب أن نعيد التفكير وبشكل فوري في احتياجاتنا المادية ونتخفف منها ونقلل النفقات فيما هو غير ضروري؛ لأن الأزمة وهي حالة غير معتادة في لحظة ما تتطلب تعاملا غير معتاد، وهذا يعني أن نتعود أولا على التوسط في حياتنا وأن نقسم الدخل إلى أجزاء ونعطي الأولوية للضروريات ونحتفظ بجزء من الدخل مهما كان يسيرا للطواريء فضلا عن عدم استسهال القروض والأقساط والاستدانة، والبعض للأسف يعيش حياة أكبر من دخله المادي، أو يتصرف في المناسبات الاجتماعية وعينه على ما سيقال عليه من الناس لا على إمكاناته الفعلية، أي: يخضع للمظهرية ولتقاليد الرياء الاجتماعي، فتتراكم عليه الديون وتزيد عليه الأزمات، ويكون سببا في إتعاس نفسه بنفسه فضلا عما يصيبه من أزمات أخرى خارجية فيقع في ظلمات مضاعفة وأزمات متراكمة، ولو أنصف نفسه من نفسه لعلم أن لا أحد يغني عنه في المصائب، وأن التصرف وفقا للإمكانات المتاحة هو أفضل من الادعاء الأجوف والمظاهر الكاذبة.

التواضع في الطموحات:

فالطموح أمر مهم يدفع المري لتحسين قدراته ومهاراته والبحث عن فرص أفضل، والإنسان بلا طموح يفقد جزءا كبيرا من فعاليته ومن قدرته على تغيير ظروفه، لكن الطموح الزائد على الحد والذي يحلق في الفضاء دون أن يقف على أرض صلبة يكون في الغالب سببا في الأزمات، ويوقع في الكثير من المشكلات الحياة بضغوطها تتطلب من المرء أن يحسب خطواته دون أن يركن للخمول ودون أن يجري وراء السراب والتوسط بين هذا وذاك هو ما يجعلنا نتفادى الكثير من الأزمات، ونحسن التعامل معها عند وقوعها.

اجعل في تخطيطك مكانا للخسارة كما تجعل للربح حتى لا تصاب بخيبة أمل أو تتورط فيما لا قبل لك على احتماله .

التفكير البديل وإعداد أكثر من خطة هو استراتيجية فعالة لمواجهة ضغوط الحياة؛ فإذا كانت ضغوط الحياة متكررة ومتنوعة بحيث إذا انتهت واحدة بدأت أخرى، فليس من اللائق أن نجمد على طريقة واحدة في التفكير أو على منهج واحد يسلكه، وإنما علينا أن نعد أكثر من خطة، وهذا يستلزم منا المرونة في التفكير ومن امتلاك حد معين من الإمكانات بما يتيح لنا أكثر من خيار، ونذكر في هذا المقام عندما اشتد الحال بالنبي ﷺ وبأصحابه في مكة بعد سنوات من الحصار والتضييق والتعذيب بحث ﷺ عن البديل فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم ذهب ﷺ بنفسه إلى الطائف، ثم كانت الهجرة إلى المدينة التي جعل الله تعالى فيها العوض الجميل.

الحياة بالإيمان:

المسلم يعلم يقينا أن الحياة ليست نهاية الرحلة، بل بدايتها وأنها ليست دار قرار وإنما محطة انتقال، ولذا فهو لا ينفك فيها عن إيمانه بالله تعالى وعن التحلي بالمعاني الإيمانية التي تجعله على بصيرة من أمره وهو يخطو في هذه الحياة، فيتوكل على الله تمام التوكل ويوقن في أقدار الله الثقة المطلقة ويصبر الصبر الجميل مما يطمئنه وينزل على قلبه السكينة.

ولئن كانت هذه المعاني الإيمانية رفيقة المسلم في الحياة، فإنها أشد حضورا عند الأزمات، فتكون أزمات الغلاء ورفع الأسعار فرصة لأن يجدد المسلم إيمانه وثقته وتوكله، ويضاعف سعيه وصبره ورجائه ويعلم أن كل ما يأتي من الله خير ولو كان ظاهره خلاف ذلك وإن الدار الآخرة خير وأبقى، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

الأمل في الله:

مع ضغوط الحياة المتراكمة لا مفر للمؤمن من أن يتحلى بالأمل ثقة في الله وحسن ظن به سبحانه واعتبارا بما يمضي من حياة الإنسان نفسه.

فكم مرت به ضائقة مالية ثم فرجها الله، وكم وقع في أزمة ثم يسر الله حلها، وكم كاد اليأس أن يقتله فجاءه طوق النجاة من حيث لا يحتسب.

إن الذي يسر لك طريق النجاة فيما مضى وجعل لك مخرجا من قبل سيحيطك بعنايته مجددا وسيرزقك النجاة والمخرج ثانية، فإنه سبحانه خزائنه لا تنفد، وعنايته لا تنفك عن عباده، وقيوميته على خلقه باقية أبدا، فهو سبحانه الغني وهم الضعفاء، وهو القوي وهم العاجزون، وهو جل شأنه محيط بكل شيء، عالم بكل أمر، لطيف في تدبيره، وقد تعلمنا من نصوص القرآن هذا الدرس وهو: أن من تكفل بأمورك فيما مضى لن يتخلى عنك وتقرأ قول الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى: ٥] .

وللمجتمع دور في المساندة في مواجهة الضغوط الدنيوية، فالإسلام يسعى على تخليص المسلم من شراك هذه الضغوط أو تخفيف حدتها حين يدعو ويأمر أتباعه بتقديم الدعم اللازم لكل من وقع في ضيق مالي.

ويرى الإسلام أن هذا الدعم واجب ويتأسس وجوبه على أمور عدة، منها:

نظرة الإسلام إلى المجتمع والأمة على أنهما كيان واحد يتأثر أفراده بما يحيط بهم سعادة أو حزنًا حيث يتضاعف الشعور بالسعادة ويخف الإحساس بالألم والحزن، قال رسول الله ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ثم شبك بين أصابعه"، كل لبنة في البنيان لا تمثل شيئا متى كانت منفردة بينما يقوى أثرها ويعظم إذا كانت داخل حائط، فواجب على المؤمن أن يقدم كل ما ينفع به إخوانه المؤمنين، وهو حين يمدهم بالدعم والقوة يجب عليهم أن يساعدوه أيضا بما يقدرون عليه من ألوان المساعدة، والبنيان من نعم الله على الإنسان يقدم له الستر ويحميه من الحر والبرد ويتمكن به من الراحة والأنس بالأسرة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون، وحين يتعمق الشعور في نفوس المؤمنين بأنهم جسد واحد يحصل التداعي الذي قال عنه النبي ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده

بالسهر والحمى"[١]، وهذا التداعي تعبير عن نداء كل عضو أو كل فرد على بقية الأعضاء أن تتساند وتتكاتف لكي تمر الأزمة، وهذا دليل على أن التواصل قائم بين أعضاء الجسد الواحد، وأن أدوات الإحساس تعمل بشكل سليم.

أما في حالة الفرقة فإن البدن لا يشعر بعضه ببعض فلكل وجهة هو موليها ولكل حياته الخاصة وبذلك يفقد المجتمع تكاتفه وقوته.

ومنها: النصيحة الصادقة المخلصة التي هي الدين كما عبر النبي ﷺ: "الدِّين النَّصيحة، قلنا: لمَن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم"[٢]، والتي تمثل تصويبا للأخطاء، ودلالة على الخير وإرشادا للحق حينما تلتبس الأمور، وقد عبر النبي ﷺ عن شأن المؤمنين بعضهم مع بعض وما ينبغي أن يقدمه أحدهم للآخر بقوله: المؤمن مرآة أخيه والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه، المساندة التي توجبها خصال الإيمان أن يحفظ المسلمون بعضهم بعضا من التلف في الأنفس والأموال وهذا يتم من خلال الدعم الذي يقدمه بعضهم لبعض.

ومنها: الترغيب في تقديم الدعم والمساندة قال ﷺ: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[٣].

بمثل هذه الوعود الإلهية من التنفيس والتيسير والستر والمعونة تنشط نفس المسلم لكي يمد يد الإحسان لغيره، ومع صعوبة الحياة ومشقاتها إلا أن المسلم حين يعين غيره فإنه بذلك يتوسل إلى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

ربه تعالى لكي يعينه، ويأتي هذا الوعد الكريم من رب العباد سبحانه باستمرار معونته ﷻ لمن يواظب على معونة الآخرين ودعمهم فجزاء الإحسان إلى الخلق إحسان الخالق سبحانه.

ومنها: المساندة والتعاون والإيثار وهو حق سيسأل الله تعالى الناس عنه، وقد جاءت صور عدة يمكن من خلالها تقديم الدعم للمكروبين مع صور أخرى توثق العلاقات بين أفراد المجتمع وتحقق حسن الترابط ليكون الجميع جاهزا لتقديم المعونة بأشكالها المختلفة، وقد تنوعت التعبيرات في أحاديث النبي ﷺ عن المعونة التي ينبغي تقديمها فمرة تأتي يقول الصحابي: أمرنا، كالحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن البراء ﷺ قال: "أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض وإجابة الداعي ونصر المظلوم وإبرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس"(١)، ومرة يأتي التعبير من الرسول ﷺ بقوله: "حق المسلم على المسلم" كما عند البخاري في صحيحه: حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس"(٢).

وثالثة تأتي بلفظ خمس تجب للمسلم على أخيه وكل هذه التعبيرات تنبيء عن مدى الأهمية الشرعية لمساندة المسلمين بعضهم لبعض.

وتتنوع الضغوط وتتعدد في حياة الإنسان بعضها قديم بدأ منذ وجوده وبعضها معاصر نشأ من تعقيدات الحياة الحديثة ومنها موت عزيز:

الله تعالى في قرآنه سمى الموت مصيبة وللتخفيف من حدة هذه المصيبة على أهل الميت كان على المجتمع واجبات عدة، من هذه الواجبات: تقديم العزاء، والعزاء أعمق من أن يكون بكلمات

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

تخرج من الفم دون أن تكتسى بالمشاعر الطيبة، وأعمق من أن تكون وقوفا على جوار أهل الميت منذ تلقي خبر الوفاة أو قبله بل ينبغي أن يكون مشاركة قلبية وروحية، وفي كلمات العزاء ننقل قول النبي ﷺ حين توفي ولد ابنته: "إن لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب"(١).

ومن صور تقديم العزاء والمواساة:

تقديم الطعام لأهل الميت، لما جاء نعي جعفر حين قتل قال النبي ﷺ: "اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم"(٢).

ومن صور تقديم العزاء:

ما صنعه النبي ﷺ مع أولاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين استشهد حيث زاراهم في بيتهم وقال: ادعو إلي ابني أخي، قال: فجيء بنا كانا أفرخ فقال ادعوا إلي الحلاق فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا ثم قال: "أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي، ثم أخذ بيدي فأشالهما رفعهما فقال: اللهم اخلف جعفرًا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه قالها ثلاث مرات. نجد أن النبي ﷺ قد أصلح من مظهر أبناء جعفر الخارجي حين استدعى الحلاق وطيب خاطرهم حين دعا لهم جميعًا وخص عبد الله بالدعاء بالبركة في التجارة وهذا بث للطمأنينة في قلب أمهم حتى لا تقلق على مستقبلهم.

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه بإسناد صحيح.

الفصل الأول: أنواع الأزمات والضغوط، وآلية معالجتها.

من منا لا يتعرض لضغوط وأزمات نفسية واجتماعية وحياتية؟

بالتأكيد لا أحد، فقد خلق الله الإنسان ليواجه مشاكل وأزمات وضغوطات كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق: ٦]، وعليه؛ فإن على الإنسان الكد والتحمل والصبر على مشاق الحياة وضغوطاتها حتى تستمر الحياة. وأنواع الأزمات والضغوط التي يتعرض لها الإنسان كثيرة، ومن تلك الضغوط:

المبحث الأول: أزمة التلاعب بالأسعار ومواجهتها في ضوء الإسلام:

إن أزمة التلاعب بالأسعار يسبب القلق والاضطراب داخل المجتمع، وحدث أن ارتفعت الأسعار في زمن الرسول ﷺ، فذهب الصحابة للرسول ﷺ يشتكون إليه ما نزل بأسواقهم رجاء أن يأخذ على أيدي الرافعين في زيادة الأسعار.

عن أنس رضي الله عنه قال: "غلا السعر بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ فقال الناس يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا، فقال رسول الله ﷺ: "إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال"[(١)]، ومصطلح التلاعب بالأسعار يصف تلك التصرفات المتعمدة للتدخل في حرية الأسواق وعدالتها من خلال الضغط على قوى العرض والطلب لإحداث فرق مقصود بين سعر السلعة وقيمتها الحقيقية بهدف تحديد الربح الفاحش على حساب المستهلكين، وليس من أخلاق الإسلام زيادة الأسعار والتلاعب فيها، ويجب أن يكون السعر نابعًا من واقع وجود السلعة حسب كثرتها أو ندرتها بناءً على قانون العرض والطلب، بلا تدخل من التجار لرفع الأسعار طمعا واستغلالا[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ج٣، ص ٢٧٢، حديث رقم ٣٤٥١ باب في التسعير، ط المكتبة العصرية .

(٢) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، ص ٣١١، مكتبة التراث الأزهرية.

ومن الأدلة على تحريم التلاعب بالأسعار ما يأتي:

١ – قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩]، فالآية نهت المؤمنين عن أكل أموال الناس بعضهم البعض بأي وجه من وجوه الباطل، وأوضحت أن التلاعب بالأسعار هو جانب من أوجه هذا الباطل المحرم أكله على المؤمنين.

٢ – ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "لا ضرر ولا ضرار"[(١)].

وأوضح أن الحديث فيه دلالة على تحريم الضرر؛ لأنه إذا نفى ذات الضرر دل على النهي عنه، إذ النهي يطلب الكف عن الفعل وهو يلزم منه عدم ذات الفعل، فاستعمل اللازم في الملزوم[(٢)]. فالتلاعب بالأسعار نوع من أنواع الضرر الذي يجب إزالته إذا وقع.

٣ – روى معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقًا على الله أن يقذفه في معظم من النار يوم القيامة"[(٣)]. وواضح أن في هذا الحديث زجرا ووعيدا بسبب رفع الأسعار، وهذا واضح الدلالة على أن محاولة إعلاء الأسعار على المسلمين جريمة منكرة[(٤)].

ومن هنا حرمت الشريعة كل المعاملات التي تؤثر في اضطراب الأسعار ومن ذلك:

١ – الاحتكار: وهو: حبس التجار السلع مع توفرها والامتناع عن بيعها ترقبًا وانتظارًا لارتفاع أسعارها ارتفاعًا فاحشًا غير معتاد، بسبب قلة المعروض، وقد اتفق العلماء على أن الاحتكار منهي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ١، ص ٢٦٧، حديث رقم ٢٨٦٧، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤١٦هـ

(٢) البدر التمام، شرح بلوغ المرام للمغربي، ج٦، ص ٣٨٧، ط هجر ط الأولى، س ١٤٢٨هـ

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ج ٢، ص ٢٤٢، حديث رقم ٢٩٧٠، ط دار هجر

(٤) الشيخ محمد الغزالي، الإسلام والمناهج الاشتراكية، ص ١٣٣، ط دار نهضة مصر.

عنه . فعن معمر بن عبد الله ﷺ عن رسول الله ﷺ: "لا يحتكر إلا خاطيء"[١] . وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ: "من احتكر على المسلمين طعامهم ضربهم الله بالإفلاس أو بجذام"[٢] .

٢ – مخالفة التسعيرة الجبرية: إن التسعيرة توضع لتحقيق المصلحة العامة، إذ يتم تقديرها بمشورة أهل الخبرة حتى لا يكون السعر مجحفًا، بل يحقق لهم ربحًا معقولًا، وفي الوقت نفسه لا يرهق جمهور المستهلكين ويرفع الضرر عنهم، ولذلك ذهب جمهور الفقهاء إلى أنها ملزمة للجميع ولا يحق لأحد مخالفتها[٣] . قال تاج الدين السبكي ﷺ: "وإذا سعر الإمام انقادت الرعية لحكمه ومن خالفه استحق التعزير"[٤].

٣ – التجارة في السلع المدعمة: تقوم الدولة بدعم بعض السلع الأساسية من أجل توفير الحاجات التي تتطلبها الحياة المعيشية لأفراد المجتمع المحتاجين بأسعار مخفضة ليتمكنوا من الحصول عليها لكن يقوم بعض الجشعين من التجار الذين يستولون على هذه السلع المدعمة من قبل الدولة بطرق احتيالية ليقوموا ببيعها بأسعار مرتفعة لتكثر أرباحهم، وقد أفتت دار الإفتاء المصرية بحرمة التجارة في السلع المدعمة[٥].

٤ – النجش: وهو: أن يعطي الرجل الذي قد دسه البائع في السلعة عطاء لا يريد شراءها به فوق ثمنها ليغتر المشتري فيرغب فيها أو يمدحها بما ليس فيها فيغتر المشتري حتى يزيد فيها أو يفعل

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ج٣، ص ١٢٢٨

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج١، ص ٢٢٤، حديث رقم ١٣٥ ورقم ١٦٠٥ تحريم الاحتكار.

(٣) الحاوي الكبير للماوردي، ج٥، ص ٤٠٨، المختصر الفقهي لابن عرفه، ج ٥، ص ٣٤٩

(٤) معيد النعم ومبيد النقم للسبكي، ص ٥٦ ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ .

(٥) انظر الموقع الرسمي لدار الإفتاء المصرية.

ذلك بنفسه ليغر الناس في سلعته وهو لا يعرف أنه ربها[١]. وقد اتفق الفقهاء على تحريمه لما رواه ابن عمر ﷺ: "نهى النبي ﷺ عن النجش"[٢].

٥ – بيع الحاضر لباد: وهو: أن يجيء للبلد غريب بسلعة يريد بيعها بسعر الوقت في الحال، فيأتيه الحاضر فيقول: ضعه عندي لأبيعه لك على التدريج بأغلى من هذا السعر[٣]. وهذا البيع ممنوع لأن فيه استغلالا؛ لما رواه أبو هريرة ﷺ قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد"[٤]. ومنحت الشريعة الجهات الرقابية على الأسواق الحق في اتخاذ ما تراه مناسبًا للحد من التلاعب بالأسعار لرفع المعاناة عن المستهلكين.

ومن الوسائل التي تساهم في الحد من التلاعب بالأسعار لدى التجار ما يأتي:

١ – التسعير: فتحديد السعر على هامش ربح معقول يعد من الضوابط التي تساعد على استقرار الأسواق وكسب ثقة العملاء[٥]. ومن حق ولي الأمر تسعير ما يحتاج إليه الناس إذا كان في هذا التسعير إكراه التجار على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ومنهم ما يحرم عليه من أخذ الزيادة عليه[٦].

---

(١) التمهيد لابن عبد البر، ج ٣، ص ٣٨٤، وزارة الأوقاف المصرية

(٢) أخرجه البخاري، ج ١، ص ٦٩ حديث رقم ٢١٤٢، والإمام مسلم، ج ٣، ص ١١٥٦.

(٣) النهر الفائق لابن نجم، ج ٣، ص ٤٤٨، دار الكتب العلمية.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٩/٣ رقم ٢١٤٠، ومسلم في صحيحه، ج ٢، ص ١٠٣٣ حديث ١٤١٣.

(٥) حماية حقوق المستهلك ص ١٠٤ دار الفكر

(٦) الفتاوى الإسلامية دار الإفتاء المصرية ٨٤ / ٨١٦.

٢ – مراقبة الأسعار: إن التسعير لا يحقق الهدف المنشود منه إلا إذا صاحب مراقبة دقيقة من قبل المتخصصين لمنع التجار من التلاعب بالأسعار[١]. يقول أشهب رحمه الله تعالى: "ويتفقد السوق أبدا فيمنعهم من الزيادة على الربح الذي جُعل لهم كيف ما تقلب السعر من زيادة أو نقصان، فمن خالف أمره عاقبه بما يراه"[٢]. وعن خريم الباهلي عن أبيه قال: "رأيت علي بن أبي طالب بشط الكلأ يسأل عن الأسعار"[٣].

٣ – الالتزام بتدوين الأسعار على السلع: وفكرة تدوين الأسعار على السلع معروفة منذ زمن الدولة الأموية، ويدل على حتمية الإعلان عن الأسعار لكل سلعة قول عمر بن الخطاب ﷺ: "أخبروهم بالسعر ودلوهم على السوق"[٤]. فلا شك أن الإخبار عن السعر هو نفس الإعلان عن الأسعار وهو ما نراه اليوم على شكل وضع بطاقة أسعار لكل سلعة تعلق عليها ليعرف المشتري ما هو ثمن هذه السلعة"[٥].

٤ – تغليظ العقوبات: لو تمادى الناس في التلاعب بالأسعار غير مكترثين بالعقوبة المقررة، وجب على الجهات الرقابية على الأسواق تغليظ العقوبات حتى تنقاد له العوامل النفسية التي تصرف عن الجريمة مع العوامل النفسية التي تدعو إليها.

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم ج٢ ص ٨٣ التوفيقية

(٢) البيان والتحصيل لابن رشد ٣١٤ مكتبة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ

(٣) موسوعة الأعمال الكاملة ج٤، ص ٢٢٦، ط دار النوادر الطبعة الأولى سنة ١٤٣١هـ يراجع نفح الطيب، التلمساني ج١، ص ٢١٨ – ٢١٩ دار بيروت.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة، ج١، ص ٥٤٧، حديث رقم ٩١٩ ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٣هـ.

(٥) الإمام ابن أبي شيبة ج ٤ ص ٣٤٧ كتاب البيوع باب في بيع الحاضر لباد.

٥ – الوعظ والنصح في توعية التجار: قال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ﷺ: "وكان العلماء بحق يدركون خطر العبث بالأسعار والغش في المبايعات فلا يدخرون وسعا في وعظ التجار وتذكيرهم بتقوى علام الغيوب وتربيتهم على القناعة بما تيسر من الأرباح"[(١)]. فعن رفاعة بن رافع ﷺ قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ فإذا الناس يتبايعون بكرةً فناداهم: يا معشر التجار فلما رفعوا أبصارهم ومدوا أعناقهم قال: إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى وبر وصدق"[(٢)]. فهذا الحديث دليل واضح على أن النبي ﷺ كان يعظ التجار ويخوفهم عاقبة الغش في السلع والكذب في الأثمان.

٦ – توجيه وتوعية المستهلكين: من الضروري تبصير المستهلكين بأسباب الغلاء والوسائل التي تعمل على إرخاصها كمقاطعة السلع التي يرتفع ثمنها قدر الإمكان، فقد روى أن إبراهيم بن أدهم قيل له: "إن اللحم غلا فقال فأرخصوه أي لا تشتروه"[(٣)]. فهذا توجيه لجمهور المستهلكين بمقاطعة السلعة التي ارتفع ثمنها حتى يقل الطلب عليها ويكثر عرضها في الأسواق فيقل ثمنها.

وعلى التجار المستهلكين أن يتقوا الله ويتوبوا إليه بالعودة إلى الله واتباع هدي النبي ﷺ فقد سئل يحيى بن عمر ﷺ عن التسعير فأجاب: على جميع المسلمين الاعتصام بالسنة واتباع سيد العالمين وإمام المتقين صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، فإذا فعلوا ذلك ووفقوا أجاد الله عليهم الكريم وأعطاهم ما يحبون، وقد جلى الله ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) التموين في الإسلام، السيد محمد عاشور، ص ١٢٧ ط دار الاتحاد العربي ١٩٧٥م.

(٢) يراجع موسوعة الأعمال الكاملة ج٤ ص ٢٢٦ ط دار النوادر، ط أولى سنة ١٤٣١هـ.

(٣) أخرجه الإمام ابن ماجة في سننه، ج ٢، ص ٧٢٦. حديث رقم ٢١٤٦.

المبحث الثاني: ضغط موت عزيز

سمى الله تعالى في كتابه الموت مصيبة، وللتخفيف من حدة هذه المصيبة على أهل الميت كان على المجتمع واجبات عدة منها:

أ – تقديم العزاء: العزاء أعمق من أن يكون كلمات تخرج من الفم دون أن تكتسي من المشاعر الطيبة، وأعمق من أن يكون وقوفًا إلى جوار أهل الميت منذ تلقي خبر الوفاة أو قبله بل ينبغي أن يكون مشاركة قلبية وروحية، وفي كلمات العزاء يقول الرسول ﷺ لابنته حين توفي ولدها: " إنَّ لِلَّهِ ما أَخَذَ وما أعْطَى، وكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ مُسَمًّى، فَلْتَحْتَسِبْ ولْتَصْبِرْ"[١]. ومن صور تقديم العزاء والمواساة: تقديم الطعام لأهل الميت، لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب حين قتل قال النبي ﷺ: "اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد أتاهم أمرًا يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم".

ومن صور تقديم العزاء – أيضًا – ما صنعه الرسول ﷺ مع أولاد جعفر بن أبي طالب حين استشهد زارهم الرسول ﷺ في بيتهم وقال: "ادعوا إليَّ ابن أخي قال فجيء بنا كأنا أفرخ فقال: ادعوا إليَّ الحلاق فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا ثم قال: "أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه الخلق وخلقي"، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال: "اللهم اخلف جعفرًا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه قالها ثلاث مرات"، فنجد أن النبي ﷺ قد أصلح من مظهر أبناء جعفر الخارجي حين استدعى الحلاق وطيَّب خاطرهم حين دعا لهم جميعًا وخصَّ عبد الله بالدعاء بالبركة في التجارة وهذا بث للطمأنينة في قلب أمهم حتى لا تقلق على مستقبلهم[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) مجلة الوعي الإسلام، مصدر سابق، صـ ٤٨، ٤٩.

المبحث الثالث: أزمة المرض وضغطه

ومن الضغوط الحياتية التي يواجهها الإنسان حالة المرض وهي حالة من حالات الضعف تشعر الإنسان بالعجز والحاجة، وإذا انضم إليها الوحدة وكبر السن تتضاعف الآلام، وكشأن الإسلام مع أصحاب الحاجات دعا إلى تقديم الدعم للمرضى حين أظهر ثواب زيارتهم، قال رسول الله ﷺ: "عائد المريض في الجنة حتى يرجع"، شبه النبي ﷺ من يزور مريضًا بمن يمشي على طريق يوصله للجنة، وإذا كان هذا ثواب من يزور مريضا ليخفف من مرضه ويشعره بأنه ليس وحده فما بالنا بمن يقوم على رعايته طوال الوقت ابتغاء مرضاة الله وطلبا للأجر منه سبحانه حتى ولو كان هذا واجبه الشرعي أو العملي، لكنه لا ينسى النية الصالحة، ويلحظ كيف تتغير المعاملة وتزداد قوة التحمل لدى المتعاملين مع المرضى حين يرون ذلك وسيلة للتقرب من الله تعالى.

ومن صور الدعم: تقديم الرعاية الطبية والدواء لغير القادرين على شرائه، ولعل المرضى الذين يطلبون من الله تعالى الشفاء إذا ساروا في طريق مساعدة المرضى بما يتيسر لهم من مال أن يكافأهم الله تعالى بالشفاء، فالجزاء من جنس العمل .

المبحث الرابع: أزمات العنوسة وغلاء الأسعار

لا يخفى على أحد مدى ما بلغته العنوسة في مجتمعاتنا لأسباب عدة، منها: ارتفاع تكاليف الزواج الناتج عن المغالاة في المهور، وعزوف الشباب والفتيات عن الزواج، إلى غير ذلك.

ولا يخفى كذلك ما تسببه هذه المشكلة من آثار اجتماعية وخلقية خطيرة تهدد أمن المجتمعات، وقد تعددت صور الدعم لعلاج هذه المشكلة سعيًا للقضاء عليها أو تخفيفا لحدتها، ومنها: عرض الفتاة على الشاب الصالح اقتداء بالرجل الصالح الذي قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾[1].

وقد يكون هذا العرض من والد الفتاة أو والدتها وليس في ذلك انتقاص من الكرامة، فقد فعلها عباد الله الصالحون على مر التاريخ بشرط أن يكون هذا العرض على الكفء الكريم الذي يقدره، وقد يقوم به آخرون سواء كانوا أفرادا أو مؤسسات يأتمنها الإنسان على مثل هذه الأمور ويثق في قدرتها على الاختيار المناسب[2].

ومنها: الدعوة لتيسير الزواج، قال الرسول ﷺ: "أعظم النساء بركة أيسرهن صداقًا"[3].

ومنها: تعزيز الثقة بين الشباب والشابات، فإن الظن السيء لا يغني من الحق شيئا، وفي النساء صالحات قانتات حافظات لأنفسهن وأهليهن، والجواهر تحتاج إلى بحث وتنقيب قد يطول أمده، لكن الشاب الذي يريد العفاف لن يعدم الخير.

---

(١) سورة القصص

(٢) دراسات فنية في قصص القرآن، د. محمد البستاني، دار البلاغة – بيروت ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م، صـ ٤٦٧.

(٣) المستدرك للإمام الحاكم. وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه.

ومنها: مساندة المجتمع بعضه لبعض في الظروف الصعبة، فأحيانًا تكون الظروف والأزمات عامة تصيب مجتمعا كبيرا أو صغيرا وتساند المجتمع يمكنه من عبور هذه الأزمة بتعاونه وتشاركه الموارد وتوزيعها توزيعا عادلا، قال رسول الله ﷺ: " إنَّ الأشْعَرِيِّينَ إذا أرْمَلُوا في الغَزْوِ، أوْ قَلَّ طَعامُ عِيالِهِمْ بالمَدِينَةِ جَمَعُوا ما كانَ عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ واحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بيْنَهُمْ في إناءٍ واحِدٍ بالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وأنا منهمْ"(١).

وليس هناك مرتبة يمكن أن يبلغها الإنسان خير من مرتبة: "هم مني وأنا منهم"، والمجتمع المسلم يقوم على المحبة ويشعر أنه في سفينة واحدة لا يمكن لشخص أن ينجو وحده إذا ضربتها العاصفة، لكن مساندة الجميع بعضهم لبعض وإخلاصهم في هذا السبيل كفيلان بعون الله تعالى بتجاوز الأزمات والتعلم منها حتى لا تتكرر أزمات الحياة من غلاء الأسعار وقود الإنجاز والنجاح.

تمر على الناس في حياتهم وتختلف نوعية الظروف والمشاكل وتختلف أيضا طريقة تعاملهم معها، وفي ظل مستجدات الأحداث وتسارع طبيعة الحياة فإن وجود الأزمات وغلاء المعيشة وزيادة الأسعار في حياتنا أمر لا يمكن الفرار منه، ومهما حاول الإنسان تجنب الوقوع في دائرة الأزمات الحياتية فإن التحديات الخارجية والصعوبات المتعددة التي تمر في الحياة ستقوده حتما إلى الإجهاد والتعب والشعور بالضعف أمام تكرار المشكلات وتشعيبها، وصعوبات الحياة ستبقى مؤقتة مهما طال أمدها واستمر أثرها لأنها في نهاية المطاف سيكون مصيرها إلى الزوال، فهذه حال الدنيا لا حزن يدوم فيها ولا فرح يدوم ويبقي السعيد من تعلم كيف يتحاشى تقلبات أحوال الزمان؛ لأن من دون معرفة فنون التعامل مع أزمات الزمان وغلو الأسعار لن يستطيع مجابهة أحداث الحياة

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وظروفها الخارجة عن إرادة الفرد، والتي تؤدي إلى أمراض صحية ونفسية وربما وقع الكثير من الناس أسرى ضغوط حياتهم وأصبحوا يعانون من أمراض نفسية وجسدية جراء تراكم مشكلات العمل والأسرة وعدم القدرة على التكيف مع ظروف الحياة بأوضاعها المستجدة والتعامل مع أزمات الحياة لا يكون بشكل عفوي إنما عبر تخطيط وحسن إدارة وربما أيضا باستثمار هذه الصعوبات لتكون عامل دفع نحو المزيد من العمل والإنجاز والنجاح.

الإيجابية في تحسين المهارات والقدرات واكتساب فنون التعامل مع هذه الأزمات التي لن تنتهي طالما استمرت الحياة.

المبحث الخامس: الضغوط المالية

ويعيش هذه الضغوطات عدد كبير من الناس في عالمنا بل قد تفوق نسبتهم نصف سكان العالم إن لم يكن ثلثيه، حيث إن العالم اليوم يعاني من غلاء الأسعار وكثرة المصاريف وقلة الدخل وضعف الموارد المالية للفرد في مقابل كثرة المتطلبات الفردية والأسرية والحاجات لهم من مأكل وملبس ومسكن ومواصلات وتعليم وعلاج، مما يثقل كاهل الشخص، ورب الأسرة في الدول المختلفة وخاصة في بلادنا العربية التي تعرضت للحروب والأزمات مما تسبب في البطالة والفقر ونقص الدخل مقابل كثرة الحاجات وكل هذا حتما سيؤدي لضغوطات نفسية ومالية وجسدية على الإنسان.

المبحث السادس: الضغوطات والأزمات الاجتماعية:

فهذه غالبا تكون نتيجة الحاجات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الإنسانية وما عليه الإنسان من واجبات اجتماعية تجاه أسرته ثم أقاربه وأصدقائه وزملائه في العمل أو الدراسة، ونتيجة التفاعل مع الآخرين والعمل معهم فإنه ستنشأ مناسبات اجتماعية متنوعة وعلى الفرد المشاركة بها من أفراح وأحزان، ما يجعل التفاعل معها ضرورة دون التقصير فيها، حيث التقصير بها يؤدي لمشاكل اجتماعية مع الأهل والأقارب.

المبحث السابع: الأزمات العقلية:

وهذه الضغوطات والأزمات تأتي عادة من كثرة التخطيط والتفكير والتحليل والتركيب والنقد للأفكار، ومن المهام العقلية التي قد يواجهها بعض الأفراد في عملهم خاصة من تعتمد طبيعة عملهم على كثرة التفكير العقلي والإبداعي والنقدي فعليه الإنتاج والإتيان دوما بما هو جدير ومفيد.

اتخاذ القرارات وحل مشكلات العمل والزملاء وتطوير أماكن عملهم وتحسينها وتطوير خبراتهم وما لديهم من أجل إنتاج أفضل وبيئة عمل منتجة وفاعلة فهؤلاء فئة عليها ضغوطات عقلية ويدخل فيها الطلبة والمدارس والجامعات وبعض الوظائف الحكومية والخاصة.

الفصل الثاني: استراتيجيات التعامل مع ضغوط الحياة:

بعد أن أظهرنا أنواعًا من الضغوطات المتنوعة التي تصيب الإنسان والتي لا بد أن يصيب كل إنسان بعضًا منها فهي تختلف باختلاف مراحل الحياة ومواقعها، فمن كان متقاعدًا تختلف ضغوطه عمن يعمل، والشاب تختلف مشاكله عن الطفل أو كبير السن، والمرأة تواجه ضغوطًا في التربية والتعليم للأبناء وفي عملها إن كانت تعمل، وفي التوفيق بين بيتها وعملها ومتطلبات أسرتها تختلف عن الرجل، وهكذا كل في مجال تخصصه وموقعه وعمله سوف يتعرض لضغوطات الحياة وبالحقيقة لا تنتهي مشاكل الحياة وضغوطاتها وتمامًا إلا بانتهاء حياة الإنسان، ولكننا نستطيع أن نعمل على التقليل منها وإدارتها بشكل جيد أو تقليل أضرارها وذلك من خلال عدة استراتيجيات وأساليب تعين عليها وتقلل آثارها، ومن تلك الاستراتيجيات ما يلي:

١ - تنظيم الوقت. وهذه من أهم الاستراتيجيات في التقليل من الضغوط النفسية والجسدية والاجتماعية التي قد تواجه الإنسان، فإذا كان الإنسان يعاني من ضيق الوقت وكثرة المشاكل فلا أفضل من التنظيم ووضع جدول مهام يومي أو أسبوعي أو شهري من أجل تحديد المهام المراد إنجازها في تلك الفترة والوقت اللازم لكل مهمة.

٢ - الاستراحات العقلية والجسدية.

٣ - توظيف الذكاء الاجتماعي للشخص.

٤ - ممارسة العادات الصحية الجيدة.

٥ - ممارسة الأنشطة المختلفة والهوايات.

٦ - التداوي والعلاج من المشكلات الصحية.

٧ - التحدث مع الآخرين ومشاورتهم.

٨ - الالتجاء إلى الله تعالى لحل المشكلات.

٩ - الاستماع إلى القرآن الكريم والذكر والحوقلة والتسبيح.

١٠ – الصبر منهج إسلامي.

المبحث الأول: مواجهة التعامل مع ضغوط الحياة.

ومن مراتب التقوى وأنها من أعظم أسباب الرزق، التقوى ثلاث مراتب: إحداها حمية القلب والجوارح عن الآثام، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي والمحرمات. الثانية: البعد عن المكروهات. الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني. فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيد صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحته وبهجته.

خطورة الاطمئنان إلى الدنيا:

يقرب الحديث للمسلم حقيقة الدنيا بصورة رائعة تتناسب مع كل هدي وبيان الرسول ﷺ، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"[(١)].

فإذا كان الرسول وهو حبيب الرحمن يرفض مجرد أن يكون له فراش مريح ولا وثير يريحه من أعواد الحصير وخيوطه المصنوعين من أوراق النخيل الخشنة القاسية الذي كان يؤثر في جنبه الشريف فما بالنا نركن لكل مريح بهذه الدار ونريد الإكثار منه؟

نهض الرسول من نومه أمام صحابته الكرام فأخذه التأثر من خشونة الحياة التي يعيشها أحب الخلق إلى الله تعالى وأفضلهم عبادة له فاقترحوا عليه ما يخفف عنه قليلا مما يلاقيه فكان رده الذي يستحق أن ينظر كل مسلم فيه وأن يتدبره بينه وبين نفسه مرارا باليوم والليلة لعلنا ننجو من الحياة الدنيا وفتنتها وخطرتها التي تأخذ بالنفس أحيانا إلى العبد، قال خير الخلق وأحبهم على بارئهم: "ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها".

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد واللفظ للأول.

أراد المصطفى توضيح أنه لا يحب ولا يريد التعلق بشيء من متاع هذه الدار الفانية فما الرسول إلا كراحل في طريق وعر أو متعب فأراد الراحة لبعض الوقت فاستظل تحت شجرة أو ارتاح أسفل أوراقها من حرارة الشمس، ثم أكمل المسير.

ينظر المرء لنفسه حينا ولفريق من البشر وبعضهم مسلم فيرى تعلقه وتعلقهم الشديد بالدنيا وزينتها ومشاغلها بل الحرص على الأخذ منها أكثر ما نستطيع، وأن يفعل البعض فقد لا يراعي حقوق الآخرين من حوله يسطو على مال ليس له، يتباهى بقدرته على بسط نفوذه وسلطانه على الآخرين، فقد يكون رب أسرة أو عائلة بأمر فيطاع وينهى فيستجاب له تحدثه نفسه أحيانا أن يغرر بهم أن يغريهم لمصلحته الخاصة، يحرص هذا على ذلك يقضي بعضهم عن بعض أو يروح مختالا فرحا بمكانته أو سطوته، بتدبر المرء في الذي يغترون بالفانية فيحاول أن يتذكر ويتمثل قوله تعالى: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"[1].

فما حياتنا إلا كمطر جاء لأرض طال انتظارها له فلما اخضرت وتزينت شاء رب العزة ولا راد لمشيئته أن تعود حطاما مرة أخرى، أما السعادة والنعيم الدائم وعدم تقلب الحياة فليس في هذه الدنيا وإن اطمأنت ببعض أهلها لوقت طال أو قصر فما تلبث أن تضنيهم وصدق الشاعر أبو الحسن التهامي:

طُبِعَت عَلى كدرٍ وَأَنتَ تُريدُها صَفواً مِنَ الأَقذاءِ وَالأَكدارِ

---

(١) سورة الحديد.

وَمُكَلِّـــف الأَيَّـــامِ ضِـــدَّ طِباعِهـــا مُتَطَلِّـــب في المـــاءِ جَـــذوة نـــارِ[١]

ومن مثل صدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيما يرويه عنه الصحابي أبو سعيد الخدري: "إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[٢].

تحلو الحياة الأولى هذه لأعيننا فتبدو مثل تمرة الفاكهة اللينة الشهية يقترب المرء فيأكل، بحسب أنه يرتاح بتناسي أنه جاء هنا في رحلة قصيرة حتى وإن ظهرت للبعض على أنها طويلة، فالرحلة الباقية الخالدة تبنى على أعمالنا وأقوالنا هنا، ويحذرنا المصطفى ﷺ من الافتتان والإيناس الشديد بالدنيا وبالتالي الضلال فيها من فرط الإعجاب بها، فعن الصحابي أبي هريرة أن المصطفى قال: يؤتي بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه فيقال هل تعرفون هذا؟ قالوا نعم هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين كلاهما خلود فيما تحبون لا موت فيها أبدًا"[٣]، وعن أبي هريرة أيضًا أن الرسول الأعظم قال: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك"[٤].

أي أننا يوم القيامة سنعلم علم اليقين أن الراحة الأبدية والتنعم بالجنان ورفقة الأطهار والأخيار والصالحين ونسأل الله مرافقة رسوله وصحبه وآله أي أننا حينما يرضى الله عنا سنحيا أعمارا مديدة وآجالا بعيدة لا نهاية لها، والذين يركنون لهذه الحياة ويرضون بها كيف لهم أن يضمنوا أو حتى

---

(١) ديوان أبي الحسن التهامي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) ابن ماجة وأحمد

(٤) أخرجه الترمذي.

ينتظروا أن يهنأوا فيها ولو قليلا وهي تتغير إلى النقيض تماما، يتخذ أحدهم كل سبيل الأمان، يأتي بالمال من حيث أراد يركن لوجوده فيذهب في فترة محدودة تقصر حتى لتصل لدقائق وأحيانا أقل، تتبدل قيمة سلعة أو يعرض الناس منها لسبب لم يكن يخطر له على بال، أو تبرز سلعة أو خامة أو تكنولوجيا أفضل مما عَلِم وعرف وتاجر وعمل، وهكذا تتبدل الأحوال يستغني عن واحد في عمل يحسنه لأسباب تكون أحيانا لا تمت بصلة إليه فإن لم يكن هذا يصاب ابن أو حفيد بما لا يخطر على بال وقى الله الجميع السوء والمصائب، أو تتجمد قطرة دم بنوبة انفعال أو حرص على المتاع الزائل يصاب صاحبها بجلطة لا قدر الله تفقده القدرة على القيام أو مجرد الانحناء ويحدث إلا بحدث شيء مما مضى لكن قلب أحد الذين نتعلق بهم سواء أكانوا صغارا أو أصدقاء من أعمارنا بتغير علينا لعلة أو سبب فنفتقد من كنا نظنه سندا ومعيبا في الدنيا وقد يرحل أحد أهم الأحباب وتبقى لنا الذكرى والشوق إلى زوجة أبا جدا صديقا عما خالا وهلم جرا فضلا عن ابن أو ابنة أبقى الله أحبابنا.

المبحث الثاني: الحكمة الإلهية في العطاء والمنع:

لقد خلق الله ﷻ الخلق بقدرته وهو عليم بحال عباده يُعطى ملكه من يشاء ويمنعه عمن يشاء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾[1]، فهو أعلم بنا من أنفسنا قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[2]، وحياة الإنسان تدور بين المنع والعطاء والله يعطي لحكمة ويمنع لحكمة، فقد يتمنى الإنسان الخير والعطاء في أمر ما وهو الشر وقد يكون المنع والشر وهو الخير قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[3]، فالخير فيما يختاره الله.

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: "ما أبالي على أي حال أصبحت على ما أحب أو على ما أكره، وذلك لأني لا أرى الخير فيما أحب أو فيما أكره"[4].

ويقول ﷺ أيضًا: "لو عرضت الأقدار على الإنسان لاختار القدر الذي اختاره الله له".

وتقول ابن عمر ﷺ: "إن الرجل ليستخير الله فيختار له فيتسخط على ربه فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو خير له"[5].

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٢٦.

(٢) النجم: ٣٢.

(٣) البقرة: ٢١٦

(٤) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا.

(٥) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا.

أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى ويُفقر من يستحق الفقر[٢].

وهناك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم تثبت حال الذين بسط الله لهم في الرزق فقد ساء حالهم وبغوا في الأرض فسادًا كقصة الرجل الذي عاهد الله لئن آتاه الله من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين، والقصة في سورة التوبة، وقصة أصحاب القرية كما في سورة النحل، وقصة صاحب الجنتين كما في سورة الكهف، وقصة قارون كما في سورة القصص، وقصة أهل سبأ وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم وغير ذلك كثير .

إن الإنسان قد يقع له شيء من الأقدار المؤلمة والمصائب الموجعة التي تكرهها نفسه فربما جزع أو أصابه الحزن وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية والفاجعة المهلكة لآماله وحياته، فإذا بذلك المقدور منحة في ثوب محنة، وعطية في رداء بلية، وفوائد لأقوام ظنوها مصائب، وكم أتى نفع الإنسان من حيث لا يحتسب والعكس صحيح، فكم من إنسان سعى في شيء ظاهره خير واضطلع إليه واستمات في سبيل الحصول عليه وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه فإذا بالأمر يأتي على خلاف ما يريد.

يقول ابن عطاء الله السكندري عن هذا المعنى في حِكَمه: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك، إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه، فمن فهم الحكمة من العطاء والمنع أصبح المنع من زخارف الدنيا هو عين العطاء؛ لأنه منع عنك ما يشغلك عنه، وذلك مثل

---

(١) الشورى: ٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير.

المريض الذي يمنعه أهله من لذيذ الطعام والشراب لماذا؟! حبًا له ورغبة في سرعة شفائه وتعافيه وليس كراهية له، فالمريض يتألم من المنع، والمنع هو عين العطاء، حيث يسرع منع لذيذ الطعام والشراب في زوال المرض ويحى الصحة والعافية، وهذا المعنى أشار إليه حديث أبى سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: « إنَّ اللهَ تعالى لَيحمي عبدَه المؤمنَ من الدنيا وهو يُحبُّه، كما تحمون مريضَكم الطعامَ و الشرابَ تخافون عليه»[١] .

كما أشار إليه حديث قتاده بن النعمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أحبَّ اللهُ ﷻ عبدًا حماه الدُّنيا كما يَظلُّ أحدُكم يحمي سقيمَه الماءَ»[٢]، لهذا قال شيبان الراعي لسفيان: يا سفيان عدَّ منع الله إياك عطاءً منه لك، فإنه لم يمنعك بُخلًا إنما منعك لطفًا"[٣]. وهكذا ظهرت الحكمة في طلاقة القدرة الإلهية والعطاء والمنع في حياة الإنسان وفي كل له خير.

ثانيًا: مواقف وصور عن العطاء والمنع:

تعالَ بنا لنقف مع هذه الصور والمواقف التطبيقية العملية في العطاء والمنع وبيان طلاقة القدرة الإلهية في ذلك. يقول مسروق: "كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم، والكلب يحرسهم، فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحًا فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب بعد ذلك. فقال: عسى أن يكون خيرًا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم. قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة. فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي.

كما قدره الله، فإذن من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال"[١]، وهكذا كان المنع والسلب هو عين العطاء.

وفي الواقع قصص كثيرة، منها: أن رجلًا قدم إلى المطار وكان حريصًا على رحلته وهو مجتهد بعض الشيء فأخذته نومة ترتب عليها أن أقلعت الطائرة وفيها ركاب كثيرون يزيدون على ثلاثمائة راكب، فلما أفاق إذا بالطائرة قد أقلعت قبل قليل وفاتته الرحلة فضاق صدره وندم ندمًا شديدًا، ولم تمضِ دقائق على هذه الحال التي هو عليها حتى أعلن عن سقوط الطائرة واحتراق من فيها بالكامل.

والسؤال أخي القارئ: ألم يكن فوات الرحلة خيرًا لهذا الرجل؟ ولكن أين المعتبرون والمتعظون؟ وهكذا ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك! ! !

فالإسلام لا يحرم طيبات الدنيا ولا نعيمها إلا إذا حالت بين صاحبها و بين العمل للدار الباقية: فالله تعالى يقول:

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: ٧٧]، فليس من الإسلام في شيء من يترك الدنيا ويقعد عن طلب الحلال فيها بعد أن قال الله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [المُلك: ١٥]، وبعد أن قال عمر بن الخطاب ﷺ: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة . وإنما يرزق الله العباد بعضهم من بعض. كما أنه ليس من الإسلام في شيء من يجعل الدنيا هي الغاية التي يبتغيها وينسى الحياة الباقية والعمل لها: والذي يضر ابن آدم هو طول الأمل ونسيان الموت . ونسيان الموت كما قيل ضلال مبين:

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

صاح شمر ولا تزال ذاكر الموت فنسيانه ضلال مبين

فهو يبنى آمالا بعيدة ويسعى في تحقيقها . فينسى أنه محدود الأجل مكلف بالطاعات فيضيع: وقد يكون الأمل كاذبًا يحتاج لتحقيقه إلى جهاد طويل – فلا يزال يدأب ويعمل – وربما كان قصير الأجل فتضحك الأقدار من غفلته. لأنه نسى عاقبة أمره . ونسى الموت وما بعده من حساب وعقاب . في جنب رغبات إن تحققت فإنها لا تجمع له إلا حطام زائلا: والواجب ألا يكون المرء عبداً للدنيا . ولا ناسكا من نساك الصوامع . بل يأخذ من الدنيا بمقدار ما يعينه على طلب الآخرة . و بمقدار ما يصلح به أمر نفسه – وأمر أهله ومن يقوم بكفايتهم: فإن زاد شيء على ذلك أنفقه في وجوه البر والإحسان . فإنه لا شيء من الطاعات ينجى العبد من أهوال الآخرة ويكسبه رضوان الله أفضل من إحسان يعطى لمن هو في حاجة إليه من أفراد المسلمين: ولقد أكثر القرآن الكريم من حث المسلمين على الجود والإحسان . وأعد للمحسنين من الثواب الجزيل ما لا يحيط به وصف ذلك . لأن الدنيا دار ابتلاء واختبار. فالغنى في يد الغنى عارية أعطاه الله إياها لينظر هل يقوم فيها بما أمر به من العطف على المحتاجين . أو يبخل به عليهم: ولكل من الإعطاء والمنع ثوابه وعقابه: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فاجعلوا رحمكم الله ما تجمعون من الدنيا عدة الأخرى . وتمتعوا بطيبات ما رزقكم من حلال. وإياكم أن تخدعكم زخارف الدنيا وآمالها، فما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون: نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الفريق الأوسط. وألا يخدعنا بدنيانا حتى نخرج منها مؤمنين آمنين، إنه هو البر الرحيم وهو ولى المتقين.

واجب المسلم حال العطاء والمنع:

هناك عدة أمور يجب على المسلم العمل بها تطبيقا وعمليا على أرض الواقع في حال العطاء والمنع، منها: الرضا بالمقسوم: فلن يبلغ العبد مقام الرضا حتى يفرح بالنقمة فرحه بالنعمة[١].

وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال: لم تسمع قوله حين بدأ به ﴿**فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ**﴾ [محمد: ١٩] . فالعلم مقدم على القول والعمل، فلا عمل دون علم لأنه ثمرة العلم والعلم إذا لم يصحبه عمل فهو علم بلا ثمرة.

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

الفصل الثالث: آليات مواجهة الأزمات والضغوط

المبحث الأول: ترتيب الأولويات وأثره وأهمية التخطيط في حياة الأفراد والمجتمعات

حثنا الإسلام على أهمية التخطيط، قال تعالى على لسان يوسف - عليه السلام -: ﴿قَالَ تَزرَعُونَ سَبعَ سِنِينَ دَأَبا فَمَا حَصَدتُم فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلا مِّمَّا تَأكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأتِي مِن بَعدِ ذَٰلِكَ سَبع شِدَاد يَأكُلنَ مَا قَدَّمتُم لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلا مِّمَّا تُحصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأتِي مِن بَعدِ ذَٰلِكَ عَام فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[١].

فالله ﷻ لم يخلق الإنسان عبثًا بل جعل له في الحياة رسالة وهدفًا يسعى لتحقيقه، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَٰكُم عَبَثا وَأَنَّكُم إِلَينَا لَا تُرجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلمَلِكُ ٱلحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلعَرشِ ٱلكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[٢].

وهذا الهدف لن يتحقق إلا بتدبير وإعداد وتخطيط، فالإنسان الذي يسير على غير هدى لا يعرف له وجهة ولا يدرك له غاية، فهو إنسان تتعاوره الضربات لتسقطه صريع المحن بائس الحال شقي النفس قليل الإنجاز أو عديمه، قال الخليفة عمر رضي الله عنه: "إني أكره الرجل أن أراه يمشي سبهللًا" أي: لا في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة.[٣].

وقد صح في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ»[٤].

---

(١) يوسف: ٤٧ - ٤٩.

(٢) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح

(٤) صحيح البخاري

والتخطيط للمستقبل أخذ بالأسباب وهو لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى فلا حرج على المسلم أن يقول: إن شاء الله سأفعل كذا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[(١)] .

وقد أشار القرآن الكريم في قصة ذي القرنين إلى أنه أخذ بالأسباب وخطط للمستقبل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[(٢)] .

وفي قصة نبي الله يوسف عليه السلام كان التخطيط سببًا لنجاة البلاد والعباد من مجاعة مهلكة وخطر محدق قام بذلك نبي الله يوسف عليه السلام فى خطة استغرق تنفيذها خمس عشرة سنة وذلك في تأويل يوسف لرؤيا الملك كما ذكر القرآن الكريم على لسانه – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[(٣)] .

---

(١) الكهف: ٢٣، ٢٤.

(٢) الكهف: ٩٣ – ٩٧

(٣) يوسف: ٤٧ – ٤٩.

لقد وازن سيدنا يوسف عليه السلام بين الإنتاج المتقن والعمل الدؤوب والاستهلاك الرشيد والادخار المحكم[١]، لقد أدرك المشكلة ففكَّر في الحل، و لم يبخل به على من سجنوه ظلمًا وعدوانًا فإن المصلحة العامة عنده مقدمة على المصلحة الخاصة وهذه دروس بالغة الأهمية، فلا ينبغي الاكتفاء بعرض المشكلة فقط والوقوف عندها بل ينبغي السعي لإيجاد المخرج من الأزمة، ومن أراد أن يتعلم التخطيط فليتأمل هجرة النبي ﷺ فقد كان ﷺ أنموذجًا للقائد والمعلم فتراه وهو في رحلة الهجرة يخطط ويدبر ويثق فى نصر الله ﷻ أولًا وأخيرًا، إنه يأتى بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لينام في فراشه على سبيل التمويه، ويسلك طريقًا وعرًا غير مأهول ولا معتاد، ويختبيء في الغار حتى يهدأ الطلب عليه وعلى صاحبه، ويدبر من يأتيه في الغار بالأخبار والطعام، ويختار من يعفي على الآثار، ويحسن انتقاء من يقوم بكل مهمة وهو في هذا كله متوكل على الله تعالى معلنًا أنه في معية الله تعالى فيقول لصاحبه: ﴿**لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾[٢].

ومن حسن التخطط والأخذ بالمشورة ما كان منه ﷺ في غزوة بدر حين قال لأصحابه: أشيروا علي في المنزل. فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلًا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: فإن هذا ليس بمنزل، انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم فإني عالم بها، وبقُلُبها قليب قد عرفت عذوبة مائه وماؤه كثير لا ينزح وتقاتل ونغوّر ما سواها من القُلب[٣].

---

(١) راجع: الإشراق الإسلامي، د محمد الجبالي حمزة، ٢/ ١٠٥ – ١٠٦، وانظر دراسات فنية في قصص القرآن، د محمود البستاني، ص ١٩٠ – ١٩٥.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) مغازي الواقدي.

وفي غزوة أحد يدير المعركة باقتدار حقق به المسلمون النصر في أول المعركة وهو يخطط للميدان تخطيطًا تميز بالمرونة فقد انسحب عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الجيش قبل بداية المعركة ومع ذلك يعيد النبي ﷺ توزيع الجيش ليسيطر على الميدان ويوزع المسلمين على أماكن القتال، وعندما خالف المسلمون الخطة دارت عليهم الدوائر، فقد روى الإمام البخاري بسنده من حديث البراء ﷺ: «لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَومَئِذٍ، وأَجْلَسَ النبيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وأَمَّرَ عليهم عَبْدَ اللهِ، وقالَ: لا تَبْرَحُوا، إنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عليهم فلا تَبْرَحُوا، وإنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فلا تُعِينُونَا، فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ في الجَبَلِ، رَفَعْنَ عن سُوقِهِنَّ، قدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ، فأخَذُوا يقولونَ: الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، فَقالَ عبدُ اللهِ: عَهِدَ إلَيَّ النبيُّ ﷺ أنْ لا تَبْرَحُوا، فأبَوْا، فَلَمَّا أبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا».

وفي غزوة الخندق يخطط ﷺ ويستشير أصحابه ويأمر يحفر الخندق حول المدينة وهو أمر لم يكن معلومًا في خطط العرب في القتال ليحافظ على الدولة من الأعداء المتربصين بها المحاصرين لها حتى كشف الله غمهم وأزاح همهم، وإن من حسن التخطيط حسن توظيف المهارات بأن تضع الرجل في موضعه المناسب ليحسن العمل يظهر ذلك جليًا من خلال عدة مواقف للنبي ﷺ نشير إلى بعض منها:

١ – اختياره لأسامة بن زيد ﷺ قائدًا لجيش المسلمين على الرغم من صغر سنه.

٢ – ترتيبه لقادة الجيش في غزوة مؤتة لأجل تحقيق النصر على الروم حيث وضع كل رجل فى موضعه.

٣ – اختياره لزيد بن ثابت ﷺ ليتعلم العبرانية ويتولى الترجمة له ﷺ.

٤ – اختياره لمعاذ بن جبل ﷺ لمهمة القضاء في اليمن لفقهه وعلمه وبراعته. من هنا نرى مدى إدراكه ﷺ لمهارات كل فرد من أصحابه ومدى الاستفادة منها بحسن توظيفها.

وعلى المستوى التخصصي يوجه النبي ﷺ أصحابه إلى النظر للمستقبل نظرة تدبير وحسابٍ لظروف الزمن للمستقبل ومتغيرات الحياة، فها هو سعد بن أبي وقاص ﷺ يقول: «عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مِن مَرَضٍ أَشْفَيْتُ منه علَى المَوْتِ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، بَلَغَ بي مِنَ الوَجَعِ ما تَرَى، وأَنَا ذُو مَالٍ، ولَا يَرِثُنِي إلَّا ابْنَةٌ لي واحِدَةٌ، أفَأَتَصَدَّقُ بثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فأتَصَدَّقُ بشَطْرِهِ؟ قَالَ: الثُّلُثُ يا سَعْدُ، والثُّلُثُ كَثِيرٌ، إنَّكَ أنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِن أنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، ولَسْتَ بنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بهَا وجْهَ اللهِ، إلَّا آجَرَكَ اللهُ بهَا، حتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا في فِي امْرَأَتِكَ. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أُخَلَّفُ بَعْدَ أصْحَابِي؟ قَالَ: إنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بهَا وجْهَ اللهِ، إلَّا ازْدَدْتَ به دَرَجَةً ورِفْعَةً، ولَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حتَّى يَنْتَفِعَ بكَ أقْوَامٌ، ويُضَرَّ بكَ آخَرُونَ»[1] .

فهذا توجيه إلى أمرين:

الأول التخطيط للأسرة في مستقبلها المادي تخطيطًا يقيها صروف الزمان.

الثاني فضل النفقة على الأهل.

وقد تعلم عمر بن الخطاب ﷺ ذلك من الرسول ﷺ فإذا به يخطط للدولة الإسلامية فيقيم فيها الدواوين ويرتب الولاة وينظم بيت المال، وحين تتعرض الدولة لمجاعة في عهده يحسن إدارة الأزمة والتخطيط لمواجهتها وهو بهذا الفكر وهذه الإدارة يقفز بالدولة الإسلامية قفزات واسعة سادت بها الدنيا شرقًا وغربًا.

ثم جاء حفيده عمر بن العزيز ﷺ وأعاد التخطيط للبلاد ليعيد توزيع موارد البلاد بالعدالة الاجتماعية المرجوّة ويخطط لاستغلال الفائض من الزكاة ليعيد توزيعه فيما ينفع الناس فيوزع على الفقراء ثم يسد الديون ثم يزوج الشباب الذي لا يستطيع النكاح ثم يعطى فقراء أهل الكتاب،

---

(١) صحيح البخاري.

ولحسن تخطيطه وصدقه مع ربه ﷻ يبارك الله له حتى أطعم الحيوان والطير على رؤوس الجبال، فما أحوجنا إلى هذا التخطيط في حياتنا لنحقق الكثير لديننا وأنفسنا وبلادنا، فإن العظماء هم الذين يعرفون هدفهم فيخططون لبلوغه فإن كانوا أفرادًا كانوا ناجحين وإن كانوا قادة كانوا لشعوبهم ملهمين وبالمسئولية قائمين.

إن بلدنا في حاجة ماسة إلى أن نضع خططًا قوية تنهض بحاضرها ومستقبلها في كل المجالات الزراعية والتجارية والتعليمية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، ولابد أن تراعي هذه الخطط الحفاظ على الكفاءات وتقيم مبدأ تكافؤ الفرص بما يحقق العدالة الشاملة فبدون تخطيط سليم ووعي لمستقبلنا وإدراك لما حولنا لن يتحقق لنا تقدم ورفاهية، وفي الوقت الحالي تمر بلادنا بمنعطف خطير في تاريخها لا يسمح بالفوضى بل لا بد من الإعداد الجيد والتخطيط السليم والأخذ بالأسباب وحسن التوكل على الله والثقة فيه فليجدد كل منا رسالته وهدفه في الحياة وليجتهد في تحقيق هدفه وبلوغ أمله، فالتخطيط السليم والعمل الجاد ثمرتهما حياة طيبة وأجر حسن. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

وللتخطيط أهمية في حياتنا الخاصة فإنهم يقولون: التدبير نصف المعيشة، ويقولون: ما عال من اقتصد. وحسن التدير وتصريف الأمور وفق الإمكانات المتاحة وعدم تكليف النفس فوق طاقتها أحد عوامل استقرار الأسرة والمجتمع والفرد.

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

تعريف فقه الأولويات:

تعريف الفقه: كلمة الفقه كما هو معروف يقصد بها العلم بالشيء والفهم له، يقال: فقه الشيء أو الكلام أي فهمه، وفقه فقاهة علم وكان فقيها وتفقه الشيء فهمه والفقه كذلك الحذق والفطنة(١).

تعريف فقه الأولويات: إذا كان مصطلح الأولويات لم يعرفه أحد حسب اطلاعي فإن فقه الأولويات نعني به وضع كل شيء في مرتبته فلا يؤخر ما حقه التقديم، ولا يقدم ما حقه التأخير، ولا يصغر الأمر الكبير ولا يكبر الصغير(٢).

إلا أن هذا التعريف لو سلك فيه المعرف المنهج المتعارف عليه وهو التعريف الجزئي أولا ثم التعريف الإضافي ثانيا لجاء أكثر مطابقة ثم إن الكلمة في هذا المركب هي الأولويات، التي كان يحسن أن يركز عليها فيعرفها تعريفا دقيقا أولا ثم بعد ذلك يوضح المقصود من الفقه بها، وأمر آخر يلاحظ على هذا التعريف هو التطويل، والملاحظ في التعريفات الإيجاز والدقة، ومما لا شك فيه أن الأسبقيات الشرعية المراد إنجازها ما هي إلا ثمرة لهذه القصة لأن تقديم حكم على آخر يكون بناء على:

أ – فقه بأحكام الشرع وبمراتبها وبالأهم من المهم وبالقطعي من الظني وبالأصل من الجزء وبالكبير من الصغير وبعبارة موجزة بالخريطة الشرعية للأحكام

ب – فقه بالضوابط والبيئة التي يتحرك فيها المسلم الفقيه، فالفقه بهذه بالضوابط لا يتم بناء عليها ترجيح حكم على آخر في حالة التزاحم أوفي غير حالة التزاحم.

جـ – فقه بالواقع والظروف التي يتحرى فيها المسلم له.

---

(١) راجع لسان العرب لابن منظور مادة فقه .

(٢) فقه الأولويات دراسة في الضوابط، م محمد الوكيلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص ١٥.

فالفقه بهذه الأمور كلها يخول للمسلم معرفة الحكم الأولى بالتقديم على غيره، وهذا كله يشكل فقه الأولويات الذي يمكن إعطاؤه التعريف التالي: "فقه الأولويات هو العلم بالأحكام الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها بناء على العلم بمراتبها وبالواقع الذي يتطلبها".

ما أسباب ظهور فقه الأولويات:

يمكن إرجاعه إلى سببين رئيسين كل منهما ينقسم إلى فروع متعددة، أما السببان فهما:

أ - الاختلالات الكثيرة التي حدثت في مراتب الأعمال الشرعية.

ب - الضرورة الدعوية التي أرغمت علماء الإسلام على منهج مسلك التدرج في أولويات العمل الإسلامي.

مراعاة فقه الأولويات في واقعنا المعاصر:

إن أمتنا في أمسّ الحاجة اليوم إلى فقه الأولويات في جوانبها المختلفة مادية كانت أو معنوية، فكرية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها، وجد ميزان الأولويات فيها مختلًا كل الاختلال نجد في كل بلادنا العربية والإسلامية مفارقات عجيبة[1].

ما يتعلق بالفن والترفيه مقدم أبدًا على ما يتعلق بالثقافة والعلم والتعليم، وفي أنشطة الشباب نجد الاهتمام برياضة الأبدان مقدمًا على الاهتمام برياضة العقول، وكأن معنى رعاية الشباب رعاية الجانب الجسماني فيهم لا غير، فهل الإنسان بجسمه أو بعقله ونفسه؟

كنا قديمًا نحرص على حفظ قصيدة أبي الفتح البستي المعروفة والتي يقول فيها:

يا خادمَ الجسمِ كمْ تَشقَى بِخِدْمَتِهِ ... أَتَطلُبُ الرِّبْحَ فيما فيه خُسرانُ

أَقْبِلْ على النفسِ واسْتكمِلْ فَضائِلَها ... فَأَنْتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

---

(١) راجع: فقه الأولويات، دراسة في الضوابط د. محمد الوكيلي ص ١٣، ١٤، المعهد العالمي للفكر ١٩٩٧م.

وسبق أن حفظنا عن زهير بن أبي سلمى قوله في معلّقته:

لِسَـــانُ الفَتَـــى نِصْـــفٌ وَنِصْـــفٌ فُـــؤَادُهُ فَلَـــمْ يَبْـــقَ إِلا صُـــورَةُ اللَّحْـــمِ وَالـــدَّمِ

العقيدة أولى بالتقديم من الشريعة:

حين نقارن مسلمي اليوم بمسلمي العصر الأول نجد البون واسعًا والفوارق كثيرة، فمع العقيدة كان المسلم في العصر الأول يعيش بها صحوة في القلب، واقتناعًا بالعقل، وطاعة في العمل والسلوك، وعلوًا في المنزلة والمكانة، أما مسلم اليوم فعقيدته ثقافة عقلية مجردة منفصلة عن السمو الروحي، ومنفصلة عن العمل والسلوك، وبعيدة عن الشريعة والقانون، وصار أمرًا عاديًا ما يعيشه المسلمون اليوم أفرادًا وجماعات في حياتهم الخاصة والعامة، ومن رحمة الله تعالى بالناس أن جعل لهم في المكان والزمان رموزًا تعرِّفهم بحقيقتهم وتدعوهم لدين الله تعالى الذي ارتضاه لهم، وتحثهم على التمسك بدينهم الحنيف وتربطهم به، فمن الأماكن الكعبة المشرفة التي يتجه إليها المسلمون جميعًا أينما كانوا في صلواتهم المستغرقة لليوم كله، ومن الزمان شهر رمضان الكريم الذي يأتي كل عامٍ مرة وكله خير وبركة، يقول النبي ﷺ: "لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان"[(١)]، والواجب ان يستفيد المسلمون من تجليات وتوجيهات رمضان الذي يتمنونه قبل قدومه وهم يدعون ربهم قائلين: "اللهم بلغنا رمضان"، وينادون ربهم بعده بقبول أعمالهم التي أدوها في رمضان قائلين: "اللهم تقبل منا رمضان"، وكأن رمضان هو الملتقى الذي يجتمع فيه الخير بالمسلمين، إن رمضان مصنع الخير الإلهي لإخراج مسلم صحيح لعدة أمور:

أولًا: شهرٌ نزل فيه القرآن الكريم هدىً للناس، يقول الله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١١٥] .

---

(١) المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني، كتاب الصوم، باب فضل شهر رمضان، رقم الحديث (١٠٥٤) .

ثانيًا: شهرٌ فرض الله فيه الصوم لقول الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] . وللقرآن الكريم والصوم تأثيرهما في تكوين الإنسان المسلم، فالقرآن الكريم هدىً للمتقين، والصوم عبادة تؤدي إلى التقوى، والتقوى المرجوة من القرآن والصوم هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل(١).

عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فاذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم ان الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقراءهم فاذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس"(٢).

(١) إن نقطة البداية في الإسلام هي العقيدة، بها بدأ جميع الرسل دعوتهم(٣)، وبها ينبغي أن يبدأ كل داعية دعوته، والبدء بها شيء طبيعي لأنها أساس كل عمل جاءت به الشريعة فهي الأصل(٤)،

---

(١) معالم الشخصية المسلمة من تشريعات رمضان، مجلة الأزهر، عدد رمضان سنة ١٤٤٥ هـ، صـ ٨٧، ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، جـ١، صـ ١٩٩.

(٣) قال الله تعالى عن نوح - عليه السلام -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (المؤمنون: ٢٣)، وقال عن هود: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأعراف: ٦٥)، وقال عن صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وهكذا قال عن جميع الرسل والأنبياء.

(٤) قال الشيخ شلتوت: العقيدة في الوضع الإسلامي هي الأصل الذي تنبني عليه الشريعة، والشريعة أثر تتبعه العقيدة، ومن ثم فلا وجود للشريعة في الإسلام إلا بوجود العقيدة كما لا ازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة، ذلك أن الشريعة بدون العقيدة علو ليس له أساس. الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ شلتوت، صـ ١١.

وعلى قدر الإخلاص فيها يكون القبول، وعلى قدر صحتها يكون السير إلى الله سليمًا، وعلى قدر قوتها يكون عطاء المسلم في الحياة قويًا، "فالدرجة الأولى في الصحة والارتقاء هي التوحيد، والدرجة الأولى في المرض والخرافات هي الشرك، فعن الأول تنبثق كل مظاهر الصحة، وعن الثاني تنبثق كل الأمراض[(١)]"، لذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤتون الإيمان قبل القرآن ويحسنونه باستمرار، فحافظوا بذلك على قوته وكماله وصدقوا الله ما عاهدوه عليه فبادروا إلى التنفيذ الفوري لأمره، واسترخصوا أنفسهم في سبيله فاستحقوا - بحق - وصف الله ﷻ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾**﴾ [آل عمران: ١١٠].

مظهر الاختلال عند المتدينين بفقه الأولويات اليوم:

الإخلال بالألويات اليوم لا يقف عند جماهير المسلمين أو المنحرفين منهم بل الإخلال واقع من المنتمين إلى دعوى التدين ذاته لفقدان الفقه الرشيد والعلم الصحيح.

إن العلم هو الذي يبين راجح الأعمال من مرجوحها، وفاضلها من مفضولها، كما يبين صحيحها من فاسدها ومقبولها من مردودها ومسنونها من مبتدعها، ويعطي كل عمل قيمته في نظر الشرع، وكثيرًا ما نجد الذين حرموا نور العلم يذيبون الحدود بين الأعمال فلا تتمايز، أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع فيُفْرِطون أو يفرِّطُون، وهنا يضيع الدين بين الغالي فيه والجافي عنه. وكثيرًا ما رأينا مثل هؤلاء مع إخلاصهم يشتغلون بمرجوح العمل ويدَعون راجحه، وينهمكون في المفضول ويغفلون الفاضل.

وقد يكون العمل الواحد فاضلًا في وقت مفضولًا في وقت آخر، راجحًا في حال مرجوحًا في آخر، ولكنهم لقلة علمهم وفقههم لا يفرقون بين الوقتين ولا يميزون بين الحاليْن.

---

(١) تربيتنا الروحية للشيخ سعيد حوى صـ ١٤٢ - ١٤٣.

ولو عرف المسلم معنى فقه الأولويات لكان عليه أن يشعر بسعادة أكبر وروحانية أقوى كلما استطاع أن يقيم بنفقات الحج مشروعًا إسلاميًا يكفل الأيتام أو يطعم الجائعين أو يؤوي المشردين أو يعالج المرضى أو يعلم الجاهلين أو يشغل العاطلين.

إن فقه الأولويات في واقعنا المعاصر يقتضي تقديم قضاء الحوائج على تكرار الحج والعمرة ولا سيما في هذه المرحلة الراهنة وفي ظروف الأزمات والوباء والبلاء، وحسبنا أن نذكر أن هذا ما جاء على لسان عبد الله بن مسعود ﷺ عندما قال: يكثر الناسُ في آخر الزمان من الحج بلا سبب. يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق فيهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار يضرب في الأرض وجاره إلى جنبه مأسور لا يواسيه.

وها هي تلك الحقيقة يرسيها جلية هذا المتصوف الزاهد بشر بن الحارث عندما جاءه رجل وقال له: يا أبا نصر إني أردت الحج وجئتك أستوصيك فأوصني. فقال: كم أعددت من نفقة الحج؟ قال: ألفي درهم. فقال له: هل تريد الحج تزهدًا أم اشتياقًا إلى البيت أم ابتغاء مرضاة الله؟ قال: والله ابتغاء مرضاة الله. فقال له: هل أدلك على ما تحقق به مرضاة ربك وأنت في بلدك وبين عشيرتك؟ تعطي هذه الدراهم عشرة أنفس، فقيراً ترحم فقره، ويتيمًا تقضي حاجته، ومدينًا تقضي عنه دينه، ومعسرًا تخفف أعباء عياله، ولو أعطيتها واحدًا لتسد بها حاجته أفضل. وهل هناك أسمى من أن يطعم المسلم جائعا أو يداوي مريضًا أو يؤوي مشردًا أو يكفل يتيمًا أو يقضي حاجة أرملة خاصة.

إن العمل الأكثر نفعًا مفضل على غيره وعلى قدر نفعه للآخرين يكون فضله عند الله تعالى وفي ذلك يقول ﷺ: «أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ ﷻ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا»(١).

(١) رواه الطبراني بسند حسن.

ويقول ﷺ أيضًا: «ومَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلمٍ كربةً من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[1] .

ويؤكد ذلك ويؤيده القصة التي ذكرها الامام ابن كثير في البداية والنهاية حيث يقول: "خرج عبد الله بن المبارك مرة إلى الحج فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مرَّ بالمزبلة إذ بجارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت الطائر الميت ثم لفَّته ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميْتة. فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة وقد حلت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال عظيم فظُلم وأخذ ماله وقتل فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عد منها عشرين دينارًا تكفينا إلى بلادنا وأعطها الباقي فهذا أفضل من حجنا هذا العام ثم رجع.

ومع ذلك كتب الله له أجر الحج كاملًا – وهو في بيته – فالأعمال بالنيات فكم من أناس في بيوتهم كُتب لهم الأجر أجر الحج كاملًا دون نقصان، وكم من أناس حجوا مرات عديدة رياءً وسمعة لا يتقبل الله منهم، نسأل الله أنه يتقبل صيامنا وقيامنا وأن يرفع عنا الغلاء والوباء.

ومن واقع حياتنا نجد طلابًا مخلصين كانوا يدرسون في كليات القمة كالطب والهندسة والزراعة والآداب وكانوا متفوقين علميًا فيها، فما لبثوا إلا أن أداروا ظهورهم لكلياتهم وودعوها غير آسفين بحجة التفرغ للدعوة والإرشاد مع أن عملهم في تخصصاتهم هو من فروض الكفاية التي تأثم الأمة جميعها إذا فرطت فيها ويستطيعون أن يجعلوا من عملهم عبادةً وجهادًا إذا أُدِّي بإتقان وصحت فيه النية والتزمت حدود الله ﷻ.

---

(١) رواه الطبراني بسند حسن.

ولو ترك كل مسلم مهنته فمن ذا يقوم بمصالح المسلمين؟ ولقد بعث رسول الله ﷺ وأصحابه في مهن متعددة من رعي غنم وغيرها، فلم يطلب من أحد منهم أن يدع مهنته ليتفرغ للدعوة وبقي كل منهم في عمله وحرفته سواء قبل الهجرة أو بعدها، فإذا دعا داعي الجهاد واستُنفِروا نفروا خفافًا وثقالًا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولقد أنكر الإمام الغزالي على أهل زمانه توجُّه جمهور متعلميهم إلى الفقه ونحوه على حين لا يوجد في البلد من بلدان المسلمين إلا طبيب من أهل الكتاب يهوديًا أو نصرانيًا يُوكل إليه علاج المسلمين والمسلمات وتوضع بين يديه الأرواح والعورات وتؤخذ عنه الأمور المتعلقة بالأحكام الشرعية مثل جواز الفطر للصائم والتيمم للجريح[(١)]! ! ! ورأيت آخرين يقيمون معارك يومية يحمى وطيسها من أجل مسائل جزئية أو خلافية مهملين معركة الإسلام الكبرى مع أعدائه الحاقدين عليه والكارهين له والطامعين فيه والخائفين منه والمتربصين به، حتى الأقليات والجاليات التي تعيش بديار الغرب في أمريكا وكندا وأوربا وجدت من جعلوا أكبر همهم الساعة أين تُلبس في اليد اليمنى أم في اليسرى؟[(٢)]

ولبس الثوب بدل القميص والبنطلون واجب أم سنة؟ وحكم دخول المرأة في المسجد هل هو حلال أم حرام؟ وما حكم الأكل على السفرة أو على المنضدة والجلوس على كرسي للطعام؟ وهل تستخدم الملعقة أم نقلد الغرب ونأكل بالشوكة؟ وهل هذا تشبه بالكفار أم لا؟

وغير ذلك من القضايا التي تفرق الجماعات وتخلق الأحقاد وتضيع الجهود والجهاد؛ لأنها جهود وخلافات بلا غاية ولا هدف، وتلاحظ على الساحة شبابًا متدينين يعاملون آباءهم بعجرفة

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، ص ٤٧.

(٢) راجع: فقه الأولويات، دراسة في الضوابط د. محمد الوكيلي ص١٧.

وقسوة وأمهاتهم بغلظة وأشقائهم وإخوانهم بعنف، ودعواهم في ذلك أنهم عصاة أو بعيدون عن الدين ناسين أن الله تعالى أوصى بالبر بالوالدين حسنًا وإن كانا مشركيْن يجاهدان ولدهما على الشرك ويصدان أولادهم بكل جهدهما عن إسلامه يقول تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾[٢] .

فرغم المحاولة المصرة من الأبوين التي سماها القرآن الكريم مجاهدة على الشرك أمر بمصاحبتهما بالمعروف لأن للوالدين حقًا لا يفوقه إلا حق الله ﷻ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[٣]، أما الطاعة لهما في الشرك فهي مرفوضة ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

كما أوصى الله تعالى بالأرحام وذوي القربى قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[٤].

وفي عصور الانحطاط وقع المسلمون في انحرافات وأهملوا بعض الفروض، ومنها: أنهم أهملوا كثيرًا من فروض الكفاية المتعلقة بكل الأمة.

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) لقمان: ١٥.

(٣) لقمان: ١٤

(٤) النساء: ١.

١ - أهملوا التفوق العلمي والصناعي والحربي الذي يجعل للأمة سلطانها وسيادتها حقًا وفعلًا وواقعًا لا دعوى وكلام، والاجتهادات في استنباط الأحكام الفقهية ونشر الدعوة إلى الاسلام ومقاومة المنكر والمنحرف عن الإسلام والتيارات المعادية للإسلام.

٢ - أهملوا وتكاسلوا عن بعض الفرائض العينية أو أعطوها دون قيمتها مثل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قدمها القرآن الكريم على الصلاة والزكاة في وصف مجتمع الإيمان ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[1]، وكان إهمال هذه الفريضة عند بني إسرائيل سببًا إلى لعنهم على لسان أنبيائهم كما ذكر الله ﷻ في قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

٣ - المسلمون اهتموا بالصوم أكثر من الصلاة فلهذا لم يكد يوجد مسلم ولا مسلمة مفطر في نهار رمضان وخصوصًا في القرى ولكن وجد من المسلمين والمسلمات من يتكاسل عن أداء الصلاة، ووجد من ينقضي عمره دون أن ينحني لله راكعًا ساجدًا، كما أن أكثر الناس اهتموا بالصلاة أكثر ما اهتموا بالزكاة، مع أن الله تعالى قرن بينها في كتابه العظيم في ثمانية وعشرين موضعًا، حتى

---

(١) التوبة: ٧١

(٢) المائدة: ٧٨، ٧٩

قال ابن مسعود ﷺ: "أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزكِّ فلا صلاة له"[(١)]، وقال الصديق أبو بكر ﷺ: "والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة"[(٢)].

وأجمع الصحابة على قتال مانعي الزكاة في حرب الردة كما قاتلوا أدعياء النبوة ومن اتبعهم من المرتدين.

ثانيًا: مراتب خلل حديثة.

يوجد اختلالات أخرى زيادة على ما أشرنا إليها[(٣)] نذكر بعضها منها:

بعضها ينشغل بالفروع والجزئيات تجده يعظم الهين من الأمور ويهون العظيم منها فيقيم الدنيا من أجل الأصبع في التشهد هل تحركه أم لا؟

البسملة في الصلاة هل نبدأ بها أم لا؟ أو صلاة ركعتين أثناء الخطبة هل نصليها أم لا؟ أو كيفية السجود في الصلاة هل نقدم الرجلين أم اليدين؟ وغير ذلك من المسائل الفرعية التي طال فيها الجدال في حين أغفلت كثير من القضايا الجسيمة وهي قضايا عديدة وملحة[(٤)].

ب – والبعض الآخر يركز على النوافل والأذكار ويهمل القضايا الكبرى معتبرا قضية تزكية النفس والوصول إلى السلام هي قضيته الكبرى التي يوجه اهتمامه لها.

جـ – أغلب الوعاظ في المساجد خطاب المساجد يتناولون دروسًا وخطبًا وقضايا لا تمس جوهر الأمة وأزمتها الحقيقية فيتحدثون في المهم على حساب الأهم، ويثيرون مواضيع لا يعيشها

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع (٣/ ٦٢)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وله إسناد صحيح.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة ﷺ، كما جاء في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ح رقم (١٣).

(٣) وهذه الاختلالات تعود إلى عصور قديمة ولكني ألصقتها بعصرنا لأننا نعيشها بنفس الحدة التي كانت عليها أو أكثر.

(٤) راجع كتاب أزمة الوعي الديني للأستاذ فهمي هويدي.

المسلم المعاصر، ويتهربون عن قصد أو غير قصد عن علاج المشاكل التي تشغل بال الناس وتستغرق همومهم، وعادة ما يلقون خطبهم بأسلوب عربي فصيح ربما لا يفهمه حتى الخطيب نفسه إذا كان ينقل خطبه من كتب الخطب التي ألفت في زمان مضى فتصل المعاني إلى المجتمع باردة، فيدب الملل والضجر في نفوس بعض المصلين، وقد يتسرب النعاس إلى آخرين[١].

وفي البوادي فإن أغلب الخطباء فيها لا يغيرون مواضيع خطبهم ولو مرت الشهور والسنين ومهما طالت غيبتك عنهم فإنك إذا رجعت تجدهم يكررون الخطب نفسها كان الحياة لم تتغير والمشاكل لم تستجد[٢].

٢ – العناية بالشكل أكثر من المضمون.

للشكل في الإسلام أو المظهرية أهميتها وقيمتها لكن دون أهمية الجوهر أو المضمون إلا أنه رغم تقديم الشرع للمضمون فإنه يلاحظ الشكلية في كثير من تصرفاتنا.

٣ – اهتموا ببعض النوافل أكثر من اهتمامهم بالفرائض والواجبات كما تلحظ ذلك عند كثير من المتدينين الذين أكثروا من الأذكار والأوراد والحوقلة والتسابيح ولم يهتموا ولم يولوا هذا الاهتمام لكثير من الفرائض وخصوصا بر الوالدين والإحسان إلى الجار وصلة الأرحام والرحمة بالمعوقين والضعفاء المنكوبين ورعاية المساكين واليتامى وإنكار المنكر ومقاومة الظلم الاجتماعي والسياسي والتعليمي.

---

(١) انظر كتاب أزمة الوعي الديني للأستاذ فهمي هويدي.

(٢) خطبة الجمعة في العامل الإسلامي لابد منها، د/ محمد عماد محمد، كتاب الأمة ص ٦١

٤ – منهم من اهتم بالعبادات الفردية كالصلاة والذكر أكثر من اهتمامهم بالعبادات التي يتعدى نفعها كالعفة والإصلاح بين الناس والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالصبر والمرحمة والدعوة إلى العدل والشورى ورعاية حقوق الإنسان عامة والإنسان الضعيف خاصة.

٥ – كثير من المسلمين أولى اهتمامه بفروع الأعمال وأهملوا الأصول مع قول الأقدمين من ضيع الأصول حرم الوصول، وأغفلوا أساس البناء كله وهو العقيدة والإيمان والتوحيد وإخلاص الدين لله .

٦ – اهتم كثير من الناس بمحاربة الشبهات والمكروهات. أكثر مما اشتغلوا بحرب المحرمات المنتشرة أو الواجبات المضيعة، ومثل ذلك: الاشتغال بما اختلف في حرمته عما هو مقطوع بتحريمه، وكثيرون مولعون بهذه الخلافات من باب خالف تُعرف في حين أنهم غافلون عن القضايا التي تتعلق بوجود الأمة ومصيرها وحياتها على الخريطة.

هذا الخلل الكبير الذي أصاب أمتنا اليوم في معايير أولوياته حتى أصبحت تصغر الكبير وتكبر الصغير وتعظم المهين وتهون الخطير وتؤخر الأول وتقدم الأخير وتهمل الفرض وتحرص على النفل وتكترث للصغائر وتستهين بالكبائر وتعترك من أجل المختلف فيه وتصمت عن تضييع المتفق عليه، كل هذا يجعل الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى فقه الأولويات لتبدي فيه وتعيد وتناقش وتحاور وتستوضح وتتبين حتى يقتنع عقلها ويطمئن قلبها وتستضيء بصيرتها وتتجه إرادتها بعد ذلك إلى عمل الخير وحيز العمل، هذا هو الفقه والعلم والحكمة التي لا يقف عليها إلا أطباء النفوس وأكمل الناس وأورعهم وأقواهم دينا وأكثرهم لله خشية، ليس هو الذي يزدري العصاة ويحتقر المذنبين ويعطي لنفسه ميزة عليهم بتقواه وعبادته وإنما هو من يرحم الناس ويشفق على الخاطئين ويعذرهم في نفسه ويتقدم إليهم بالنصح كطبيب يعالج مريضا وهل رأيت طبيبا يحتقر مريضا أو يزدريه أو يترفع عليه؟

التيسير أولى من التعسير:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[١]، وعن أنس أن النبي ﷺ قال: (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا)[٢]، ان التيسير ورفع الحرج خاصية من خاصيات الاسلام، فتكاليف الاسلام ميسرة وسهلة تنسجم مع الفطرة البشرية وتناسب طاقة الإنسان وقدرته[٣]، والأمثلة على تجسيد الرسول ﷺ لهذا التيسير على المسلمين والتسامح مع الكفار كثيرة، عن أبي هريرة ﷺ قال: (قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ: دعوه وهريقوا على بوله سجلًا من ماء أو ذنوبًا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[٤].

وبلغه ﷺ أن عبد الله بن عمرو بن العاص يبالغ في التطوعات فنصحه بالاعتدال)[٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، ١/ ٩٤.

(٢) المرجع نفسه، كتاب العلم، جـ١، صـ ١٦٣.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، جـ ٥، صـ ١٤٢، كما أخرجه البخاري في كتاب المناقب.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، جـ١، صـ ٣٢٣.

(٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: "قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَبْدَ اللهِ! . أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! . قَالَ: "فَلاَ تَفْعَلْ. صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ". فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ" فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! . إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: "فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ"، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ؟ . قَالَ: "نِصْفَ الدَّهْرِ". فَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم، جـ ٤، صـ ٢١٨.

وقد آذاه قومه وحاربوه وأدموه ﷺ مرارًا ولكنه كان دائمًا يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

وعفا ﷺ عن الأعرابي الذى جذبه من ردائه حتى أثر الرداء في عنقه طالبًا منه العطاء، فضحك ﷺ وأمر له بعطاء[١]. إلى غير ذلك من الأمثلة...

وبفضل هذا التيسير والرفق بالناس والتسامح معهم استطاع ﷺ أن يكسب ود الجميع، ويوصل الإسلام إلى قلوب من كان يحقد عليه ويعادي دعوته، وإذا أراد الإسلاميون كسب ود الجميع وتوسيع دائرة الالتزام بالإسلام فإن هذه القاعدة النبوية في التعامل مع الآخرين يجب أن تحكم أسلوب الدعوة والداعية[٢].

فالنفوس إذا أشفقت عليها ورفقت بها مالت إليك وأحبتك، وإذا أغلظت في حقها وجافيْتها نفرت منك، والمسلم بفضل إسلامه يجب أن يكون مؤلفًا لا منفرًا: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أقول هذا لأن بعض العاملين في حقل الدعوة لا يعرفون إلا الشدة والتعسير على الناس، وكأن التيسير ليس من الإسلام (فالمزاح المباح يصبح منكرًا، والمداعبة اللطيفة تصبح منكراً، والضحك الغالب يصبح حرامًا والعبوس الدائم يصبح أدبًا).

---

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية". الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الادب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، جـ١٠، صـ٥٥١.

(٢) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، فتحي يكن، صـ٤٠.

وكأن المسلم لا حق له في مباحات الحياة، فليس من الحكمة في شيء أن نعمق الهوة بين المنحرفين والإسلام بتشديداتنا وتخويفاتنا، علينا أن نوضح لهم أن الإسلام يقبل توبة التائب ويجبُّ ما قبله فهو رحمة قبل عذاب، وتوسعة قبل تضييق، وسعة قبل نقمة، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت لكل من أقبل على الله وتصالح معه، وإذا كانت تكاليف الإسلام سهلة وميسرة – كما ذكرنا – فإنه رغم ميزة اليسر هذه فقد يمر الإنسان بحالات استثنائية وطارئة يستحيل معها القيام بهذه التكاليف رغم يسرها لذا شرعت الرخص في مقابل أحكام العزيمة[١]، التي تسري على الحالات العادية فزادت من يسر الإسلام إلا أنه ليست كل مشقة تستوجب الترخيص إذ المشاق متفاوتة، منها المحتمل ومنها غير المحتمل، لذا فقد قسمها علماء الأصول إلى قسمين لمعرفة المشقة التي تقتضي الترخيص[٢].

---

(١) الرحمة لغة: التيسير والتسهيل. أما اصطلاحًا: فهي الحكم المبني على العذر أو ما شرع من أحكام تخفيفًا على المكلف في حالات خاصة تقتضي هذا التخفيف. أما العزيمة فتعني لغةً: القصد المؤكد، واصطلاحًا: الحكم الأصلي لجميع المكلفين في جميع أحوالهم أو الأحكام العامة التي تسري على جميع الأحوال. راجع أصول الفقه للخضرى، صـ ٤٩، وأصول الدين للبزدوي، جـ ٢، صـ ٢٩٩، وفقه الأوليات دراسة في الضوابط، د. محمد الوكيلي، صـ ١٠٠.

(٢) جولات في الفقهين، سعيد حوى، صـ ١٠١.

المبحث الثاني: أثر الفرد في نهضة الأمم لمواجهة الأزمات والضغوط النفسية والمالية

لعل الذي قصر بنا عن ركب الحياة المتحضر الكريم أن عنايتنا بعلل المجتمع وأمراضه كانت دون عنايتنا برزقه وثروته ومختلف شؤون حياته، ولقد كان وما يزال عندنا نفر يعتقدون أننا لن نحترم إرادتنا وتكون لنا مكانتنا اللائقة بنا إلا إذا كانت لنا كل مظاهر الترف واللهو في حياة الأمم المتحضرة اليوم، وفات هؤلاء أن الترف من ثمار الحضارة لا من مقوماتها، وأن هذه الأمم التي تعجب اليوم بعلمها وفقهها وقوتها لم تهمل في أوائل نهضتها التي وقفنا فيها.. إن الأمة مجموعة متماسكة من الأفراد، وكلما كان الفرد سليمًا كان بناء الأمة سليمًا، وكلما كانت أخلاق الأمة قوية نقية كانت اتجاهاتها سليمة وهدفها مستقيمًا.

ولعل الإسلام هو أوفى الأديان والشرائع عناية بتوازن القوى المختلفة في المجتمع، وبناء الأمم بناء متراصًا لا وهن فيه ولا اختلال، إنك لتراه يعنى بتنظيم حياة الناس المادية كأتم ما تعني بذلك المذاهب الاقتصادية، ويهتم بتقويم الأخلاق الاجتماعية كأقوى ما تهتم بذلك الدعوات الأخلاقية، وتبالغ في تطهير الروح وتهذيب النفس أشد ما تبالغ في ذلك الأديان الروحية، هو يشد بعضها على بعض، حتى لترى المسلم الحق قويًا في كل ناحية من نواحي حياته، قويًا في روحه، قويًا في خلقه، قويًا في جسمه، قويًا في كل ما يعطيه لفظ القوة من دلالة، وما أروع قوله ﷺ: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف[1].

وما من شك في أننا نعاني في حياتنا الحاضرة أمراضا اجتماعية خطيرة لن تستقيم معها نهضة، ولن يطرد بها سير، وهي مختلفة المظاهر في الفرد والأسرة والجماهير، وهي تشمل فئات الناس جميعا من عالم وجاهل وكبير وصغير ومدني وقروي، ومن أجل ذلك تبدأ في علاج الفرد، فالفرد

---

(١) رواه مسلم.

هو الخلية الأولى في بناء المجتمع والدعوات الإصلاحية تبدأ طريقها من الفرد لا من الجمهور، نعم إن الأمة مجموعة متماسكة من الأفراد، وكلما كان الفرد سليما كان بناء الأمة سليما، وكلما كانت أخلاق الأمة قوية نقية كانت اتجاهاتها سليمة، وهدفها مستقيما، ولعل الإسلام هو أوفى الأديان والشرائع عناية بتوازن القوى المختلفة في المجتمع، وبناء الأمم بناء متراصا لا وهن فيه ولا ثغرة ولا اختلال، إنك لتراه يعنى بتنظيم حياة الناس المادية كأتم ما تعني بذلك المذاهب الاقتصادية، ويهتم بتقويم الاخلاق الاجتماعية كأقوى ما تهتم بذلك الدعوات الأخلاقية، ويبالغ في تطهير الروح وتهذيب النفس أكثر مما تبالغ في ذلك الأديان الروحية.

إن إصلاح عشرة من الأفراد في كل بلدة إصلاحا يجعلهم أئمة في الهدى والخير والاستقامة هو الذي يؤدي إلى استقامة شئون البلدة ونظافة حياتها الاجتماعية، ورسول الله ﷺ ظل في مكة ثلاثة عشر عاما يعنى بتربية أفراد أمته حتى إذا اجتمع له منهم عشرات شرع في بناء الدولة الصالحة والحضارة الصالحة، إن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وابن مسعود وأمثالهم هم الذين أقاموا صرح الدولة الإسلامية والحضارة العربية المشرقة، وهم الذين كان يجتمع إليهم رسول الله في شعاب مكة، وفي دار الأرقم وفي فناء الكعبة يقوي أرواحهم ويصقل نفوسهم ويهذب أخلاقهم حتى إذا مضى لربه كان لهم في التاريخ شأن وأي شأن وكان لهم في هداية الإنسان نصيب وأي نصيب.

والذين صنعوا الدول وأقاموا الحضارات وارتادوا آفاق العلم والذين غيروا مجرى التاريخ وأحدثوا أكبر الأثر في حياة أمتهم أو حياة الإنسانية هم أفراد قويت إرادتهم واستقامت أخلاقهم وخلت حياتهم من كثير من الآفات النفسية والخلقية القاتلة، ولست أريد بذلك أن أهمل شأن الجماهير وأن أغمطها حقها ودورها في حركات الإصلاح، فهي دعامة كل حركة إصلاحية وانقلاب اجتماعي كريم، ولكن الجماهير تظل دائما كالجسم في حاجة إلى عقل يدبر ورأس يفكر، هي كالسيارة في أجزائها المختلفة لا تستغني عن أصغر جزء فيها، ولكنها لا تسير من غير سائق، فإذا قدر للإصلاح من يحمل رسالته وينشر مبادئه ويفتح أعين الجماهير لأشعته المشرقة، استطاعت

الجماهير أن تشق طريقها نحو الخير، وأن تعمل عملها العظيم في التاريخ، ولإيجاد الفرد الصالح أقيمت المدرسة والمعهد وأقيم المسجد والمعبد وأقيمت الجمعية والنادي، ومن هنا كانت رسالة المدرسة والمسجد والجمعية رسالة يتمم بعضها بعضا، ففي المسجد تبنى روح الفرد، وفي المدرسة يبنى عقله، وفي الجمعية يبنى خلقه، وبذلك كان وجود هذه المؤسسات معا من ضروريات الحياة الاجتماعية الصحيحة، وكان فقدان المجتمع لواحد منها دليل اختلال، فلن تغني المدرسة عن المسجد، ولن تغني الجمعية عن المدرسة، والذين يظنون أن المسجد ليس شيئا أساسيا في بناء المجتمع، إنما يريدون بناء عقل لا روح فيه، وهم مخطئون كالذين يظنون أن المدرسة ليست شيئا ذا بال في قيام المجتمع، وأن المسجد أو الجمعية تغني عنها، فلن تحيا روح لا عقل لها ولن يعمل العقل والروح عملهما من غير خلق يوجهها نحو العمل الاجتماعي المثمر المفيد.

ومن الحق أن نزعم أن المسجد والمعبد دوره الأول في تكوين الفرد الصالح فهو يجيء قبل المدرسة والجمعية، بل هو قد أدى في فجر حياتنا الحضارية في التاريخ الإسلامي دور المدرسة والجمعية أيضا، ويوم قدم رسول الله ﷺ المدينة كان أول عمل قام به وأول حجر وضعه في أساس الدولة التي غيرت مجرى التاريخ بناء المسجد النبوي الكريم، ولقد كان مسجده هو المصنع الذي خرج الأبطال الذين يعتز بهم الإصلاح الإنساني الخالد، فما أبو بكر ولا خالد ولا عمر ولا سعد ولا عمرو إلا تلاميذه، تخرجوا من المسجد الذي كان في حياة رسول الله ﷺ معبدا ومدرسة وجمعية في آن واحد.

ومدارسنا التي حملت لواء العلم والحضارة في القرون الوسطى لم تبدأ إلا من المسجد، فلم تكن المساجد في الحقيقة إلا مدارس يجتمع الطلاب في فنائها نهارا للدراسة ويأوون إلى غرفها ليلا للنوم، ولقد حدثنا التاريخ عن المساجد الإسلامية الكبرى كمسجد المدينة وقرطبة والأزهر أن أعمدتها كانت ظهورا للعلماء الذين يتحلق الطلاب من حولهم حلقا حلقا، حتى قالوا: إن مسجد

قرطبة كان فيه آلاف الأعمدة حول كل عمود عالم وتلاميذه، ولست أبعد عن النهج الذي رسمته عن أخلاقنا الاجتماعية إذا تكلمت عن أثر المسجد في معالجة هذه الأخلاق، فلقد أصبح من ركائز علم النفس الاجتماعي اليوم الاستفادة من الدين في علاج كثير من الأمراض، فالهموم والأحزان وانهيار الأعصاب والأنانية والانعزالية والجرائم الأخلاقية كل هذه يفيد الجو الروحي الذي يهيؤه المسجد في معالجتها وشفاء المصابين منها.

لهذا كان رسول الله ﷺ إذا حان وقت الصلاة أمر بلالا أن يؤذن بها وهو يقول أرحنا بها يا بلال.. وهذا كلام له مغزى نفسي بعيد لا يصدر إلا من مثل المعلم الأكبر محمد ﷺ، وقالوا في وصفه عليه السلام: إنه كان إذا حزبه أمر أو أصابه هم فزع على الصلاة، وكان إبراهيم بن أدهم من كبار العباد الصالحين يقول حين يقوم في الليل مصليا مناجيه ربه: نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها.

هذه الراحة وهذا الاطمئنان وهذه التي يحتاج إليها عالمنا المريض ومجتمعنا المثقل بالهموم والعلل ويقيني أن الذي يفقده الناس من مقاييس الحق والعدالة والكرامة في أعمال السياسيين لا علاج له إلا بأن يتذوق المسؤولون عن مقدرات الشعوب لذة العبادة، وأن يجدوا اطمئنان الروح بين يد خالقها العظيم، أخي المسلم هل جربت العبادة يوما ما على وجهها الصحيح فرأيت أثرها في روحك وخلقك؟ إن كنت لم تفعل ذلك حتى اليوم فبادر إلى الله بوقفة خاشعة بين يديه لتحقق صدق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

.

إن الإنسان هذا العجيب المتناقض هو الذي جعله الله دليلا من الأدلة الظاهرة على وجود الله وما أبعد دلالة هذه الآية وأعمق غورها لدى العقلاء والحكمة ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

الوقاية من الغرور ومرض الاحتقار:

الإنسان العاقل هو الذي لا ينسى جوانب الضعف والقوة فلا يغتر بمظاهر القوة والذكاء والعلم حتى يزعم لنفسه كل فضيلة ويتطاول بغروره إلى كل منزلة، ولا يركن إلى جوانب الضعف والعجز فيه فيحتقر نفسه ويهمل إمكانياته ويعيش في الحياة كأنه همل مضياع.

ومن الملائم الخير في كل أمة أن تنجو من مرضين خطيرين مرض الغرور ومرض الاحتقار، أما الغرور فهو أن ترى أفرادها يحتقرون كل من عداهم ويتطاولون إلى ما ليس في قدرتهم ويتدخلون فيما ليس من شأنهم ويحكمون على ما لم يحط به علمهم، حتى ليترفع أحدهم عن الإصغاء إلى نصيحته والاستماع لرأي والإجلال لعالم، فكل واحد منهم يرى نفسه عالما فوق العلماء، وحكيما أوعى من الحكماء، وسياسيا لا تغيب عنه شاردة، وعظيما لا يرى بجانبه أحد يستحق الإجلال والإكبار، هذا المرض هو الذي تبتلي به الأمم الضعيفة المنتقلة من طور الخمول إلى طور اليقظة المتردية من شامخ العزة إلى درك الضعف والذلة.

وإنه لمرض يتفشى في أمتنا وأزمة تعاني منها، وحسبك أن تستمع إلى أحاديث الناس في المجتمعات العامة في الطرقات والأندية لترى كيف يحمل كثير منهم مبضع الطبيب يجرح به هذا ويقطع به ذاك، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء ونظره فوق الأنظار وعلمه فوق كل علم، وهو لا يفتأ في حديثه يصف الناس بالحماقة ويصف السياسيين بالبلادة ويصف العلماء

---

(١) سورة الذاريات.

بالجهل، وحين تبتلى الأمة بهذه الأزمة، والضغوط والمرض تستعصي على نصح الناصحين وتنحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين ويتراكم عليها المصائب وهي في إثم وتتألب عليها الدنيا وهي تظن أنها أقوى من أعدائها جميعا تهزمهم بصرخة وتردهم بإشارة وتدفعهم عنها بالضجة والثرثرة الفارغة.

أما المرض الثاني[١]: فهو مرض احتقار النفس، فترى من أصيب به محطم الأعصاب مسلوب الإرادة فاقد الأمل لا يثق بنفسه ولا بأمته ولا يرى أنه شيء في الحياة، هذا المرض متفش في أمتنا أيضا، فكم من أمتنا من قضى عليهم الخمول والكسل والعزلة ولو سألتهم عند ذلك لأجابوك من نحن وما قيمتنا؟ وإذا أحاط الشر بأمتهم رأيتهم يتسللون لواذًا إلى البيوت، فإذا طلبت منهم أن يساهموا في البلاد قالوا لك وما شأننا في الحياة؟ معًا نستطيع أن نعمل وهل تستطيع أن نوقف السعي أو نؤخر عجلة الزمان. كلا يا صاحبي إنك شيء عظيم تستطيع أن تفعل أشياء وأشياء.

وما هؤلاء الذي نراهم ممن يملؤون التاريخ بجلائل الأعمال ويملؤون المجتمع بوافر النشاط إلا أناس مثلك بجلائل الأعمال ويملؤون المجتمع بوافر النشاط، إلا أناس مثلك لهم مواهبك وذكاءك ولكنهم وثقوا بأنفسهم وعرفوا قيمة مواهبهم فاستفادوا منها وأفادوا أمتهم وأما أنت فلقد ازدريت نفسك وانتقصت أمتك ورضيت لنفسك أن تكون نسيا منسيا.

مثل هؤلاء في مجتمعنا كثيرون وأعجب من ذلك أنك ترى في هؤلاء المصابين بمرض الخمول والاحتقار من هو مصاب بداء الغرور أيضا فهو يقدر نفسه في أمته تقدير المغرور المتبجح، ولكنه يضع نفسه أمام الأعداء موضع الحقير الذي ليس من حقه أن يرفع رأسه أو يطلب كرامة، وما أكثر هؤلاء الذين نراهم ينتقصون أمتهم ويمجدون أعداءهم ويزدرون تاريخهم ويكبرون تاريخ غيرهم،

---

(١) أخلاقنا، د. حسين مصطفى، ص ٣٤.

ويحتقرون عقائدهم وهم بالعقائد الباطلة لدى الأمم الأخرى أشد إعجابا وأكثر تقديرا، إذا ادلهم الخطب في أمتهم رأيتهم دعاة هزيمة وأبواق خذلان يبثون في قومهم أن أعداءنا لا يقاتلون وإننا في وقوفنا في وجههم نقضي على أنفسنا وعلى مستقبلنا.

إن الغرور بالنفس واحتقارها مرضان خطيران. والإسلام الجميل نهانا عن هذين المرضين وأبعدنا عن التخلق بهما، فالإسلام يبعدنا عن الغرور بتذكيرنا بقدرة الله، وإنها فوق قدرتنا ونعمة الله علينا في كل ما نعتز به من مال وجاه وعلم وفضل، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ويقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

بمثل هذا الأدب الإلهي أبعد الإسلام الغرور عن المسلم فما تراه إن كان مسلما حقا يحتقر ذا فضل ويزدري ذا نعمة، وهذا رسول الله ﷺ دخل مكة بعد حرب مستمرة بينه وبين قريش عشرين عاما أو تزيد حتى إذا انتصر عليها ودخلها دخول الفاتحين لم يشمخ بأنفه ولم يتطاول بانتصاره بل كان يسحب الناقة، ورأسه منحن على صدره حتى ليكاد يمس عقب الراحلة شكرا لله على نعمته واعترافا له بفضله، ولما وقف على باب الكعبة ووقفت قريش بصناديدها وكبريائها تنظر ماذا يفعل الرسول بها بعد أن تمكن من رقابها لم يتملكه الغرور، بل أراهم لين الجانب وبسط الجناح وقال لرجل وقف بين يديه خوفا منه هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1] بأدب النبوة، ما اروعه وما أبلغ أثره!

أنا ابن امرأة من قريش هذه كلمة لم يقلها رجل مهزوم ولا وضيع ولا مغمور، وإنما قالها رجل أكرمه الله بالرسالة وآتاه الحكمة والنبوة وتوجه بأكاليل النصر، ومع ذلك فلم يزد في نفسه على أن يقول للناس إنما أنا ابن امرأة من قريش، فهلا يرى هؤلاء المغرورون الذي يؤذون الأمة بدعواهم،

---

(١) فقه السيرة دروس وعبر د/ محمد سعيد رمضان.

ويتطاولون عليها بإثارة علمهم هلا يرون في تواضع الرسول ما يردهم على حقيقتهم في أنفسهم ومكانتهم من الناس؟

أما أدب الإسلام في الثقة بالنفس والابتعاد عن احتقارها فإنك لتراه واضحا في هذه الآيات التي ترفع من معنويات الأمة وتحملها رسالة الإنقاذ والإصلاح: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وما أروع قوله ﷺ: "لا يحقرن أحدكم نفسه"[(١)]. "لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا الا تظلموا"[(٢)] هذه تعاليم الإسلام في بث الثقة بالنفس، ثقة لا يقتلها الغرور.

وبذلك كان المسلم في صدر الإسلام لا يرى نفسه أصغر من أن ينصح رئيس الدولة ولا أقل من أن يقول من أين لك هذا يا أمير المؤمنين؟ ولا أحقر من أن يقود جيشًا، وإن عظماء الإسلام في صدره الأول لم يكونوا كلهم إلا شبابًا ومن غمار الناس ما زال الإسلام يفتح فيهم من روحه ويبعث فيه من الثقة بأنفسهم والتقدير لمواهبهم حتى كانوا أعلاما خفاقة يصنعون التاريخ وينشئون الأمم ومن عمرو بن العاص؟ ومن عمر بن الخطاب؟ ومن أبو بكر؟ ومن سعد، ومن خالد؟ ولم يكن هؤلاء في جاهليتهم إلا جزارا ينحر الإبل أو شابا يمعن في اللهو أو تاجرا يعكف على تجارته أو شجاعا لا تعلم به إلا قبيلته فإذا بهؤلاء يصبحون لحنا من ألحان الخلود تترنم بهم أقاصيص البطولات.

---

(١) رواه ابن ماجة.

(٢) رواه الترمذي.

أخي المسلم، لا تضع نفسك فوق منزلتها فتكون مغرورًا مخدوعًا، ولا تنزل نفسك دون منزلتها فتكون حقيرا مهانا، ولكن ضع نفسك في موضعها الحق وانظر إلى مزاياك ونقائصك فما وجدت ميزة وفضل فاحمد الله واطلب المزيد منه وانفع به الناس.

الإسلام يقرر أن صلة الإنسان بأخيه صلة كرامة ونفع، يقول الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ سورة الإسراء: ....] فأثبت كرامة ونفع الإنسان كإنسان يقطع النظر عن دينه ولغته وجيشه ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(١)].

ويقول ﷺ: "الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله"[(٢)].

وإنه لحافز اجتماعي ما بعده حافز في نظر المؤمن أن يكون مقياس القرب إلى الله نفعه للناس وتقوم آداب الإسلام على اعتبار التعاون مع الناس أساسا لهذه الآداب فروح الشريعة مكارم الأخلاق إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[(٣)]. وروح مكارم الأخلاق هو التعاون مع الناس على الخير والإحسان إليهم وإسداء النصح والمعروف لهم والقاعدة التي تبنى عليها الأخلاق في الإسلام هي قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة: ٣].

وإنه لجميل أن تعرف أن البر والتقوى في الإسلام ليس ما يتوهمه العامة والجاهلون من أنها العبادة والصلاة فحسب، بل كل عمل فيه خير لنفسك وخير للناس هو في الإسلام بر وتقوى استمع إلى قوله تعالى في تحديد البر والتقوى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) رواه البزار

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ورواه بلفظ بعثت لأتمم حين الأخلاق.

وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾[1].

فهنا أنت ترى تحديدًا للبر والتقوى بأنه الإيمان والإنفاق على الطبقات العاجزة في المجتمع الذين يعانون من أزمات مالية وضغوط، والعبادة والزكاة والوفاء بالعهد والصبر على الشدة هذه هي حدود البر والتقوى التي أمرنا الله أن نتعاون عليها ويكون ما عداها من شرك وقسوة وظلم وأكل لحقوق الناس ونكث للعهد وجزع عند المصائب إثما وعدوانا يبتعد عنها المؤمن ولا يجوز أن يتعاون عليها مع أي إنسان كان.

وتقوم العبادات في الإسلام على فكرة التعاون الاجتماعي بين المؤمن وبين الناس جميعا، فهذه الصلاة ما فوائدها؟ ما حكمتها؟ ما الغاية منها؟ أهي طقوس ورموز لا معنى لها؟ أهي حركات آلية لا مغزى لها؟ أهل صلة فردية بين العبد وربه كما يتوهم الجاهلون؟ كلا.. إنها عملية تطهير وإعداد، تطهير للإنسان من كل آثار الانعزالية والقسوة والغفلة والفاحشة، وإعداد له يتحلى بكل خلق اجتماعي تعاني فيه للناس جميعا فائدة ونفع استمع إلى القرآن يشرح فوائد الصلاة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[2]. هي التطهير من كل خلق

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

ذميم ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾[١].

وهذه ناحية إيجابية هي الإعداد لكل خلق عظيم، تلك هي الصلاة، عبادة لتقويم الخلق الاجتماعي الكريم المتعاون في نفوس المصلين، فإن لم تؤد إلى ذلك كانت أعمالا باهتة وحركات ضائعة لا تقر بالمصلي إلى ربه، بل تزيده عنه بعدا وبهذا أعلن النبي عن فلسفة الصلاة وغايتها من لم تنهه صلاته عن الفحشان والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا[٢]

وهذا الصوم ما فائدته؟ ما حكمته؟ ما غايته؟ أهو جزع وعطش؟ أهو تعذيب وحرمان؟ كلا.. إنه عملية تطهير وإعداد أيضا، تطهير للصائم من القسوة والبخل واللغو والعبث والكذب والخصام.. وإعداد له ليتحلى بكل ما يحبب الصائم إلى الناس من تعاون ورحمة وبر ووفاء وشعورا بآلامهم في الفرح والحزن وفي الشدة والرخاء، يقول القرآن عن حكمة الصيام "لعلكم تتقون"، من اتقاء كل ضار وخبيث ومفسد لحياة الأفراد والجماعات، ويقول عليه الصلاة والسلام: الصوم جنة" أي وقاية أي تطهير أي عمل سلبي أولا إيجابي أخيرا فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم"[٣].

---

(١) سورة المعارج آية ١٩ – ٢٢ .

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

هذا هو الصيام عمل اجتماعي قبل أن يكون عبادة فردية، وما أروع قوله ﷺ في التعبير عن فلسفة الصوم وغايته: "فمن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه[١].

وهذا الحج لم شرع، وعلى من فرض؟ أهو غربة وعذاب؟ أهو طواف حول أحجار وبنيان؟ أهو أثر من آثار الوثنية كما يتوهم الجاهلون؟ كلا إنه اجتماع وتعارف ولقاء وتعاون، إنه تطهير وإعداد أيضا. تطهير للمسلم من كل آثار الانعزالية والأنانية والرخاوة والترف وإعداد له أو يحرص على اللباس التقليدي الذي يشبه لباس أسلافنا ويمتنع عن ارتداء الأزياء العصرية لأن فيها تشبها بالكفار، وقد اعتبر بعض الباحثين كتابه الولاء والبراء في الإسلام" أن هذا التشبه بهم في المظهر يورث التشبه بهم في العقيدة ويقضي على مودتهم، يقول الدكتور/ الدين الإسلامي ليس حريصا على تميز المسلمين في المضمون فحسب، وإنما حتى في المظهر العام لمسلم في نفسه والمجتمع في عمومه... لأن التشبه بالكفار في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة أو مودتهم[٢]

وهو تلازم بعيد إذ كيف يؤدي التشبه بالكفار في مظاهرهم على اعتناق عقائدهم، إن العكس هو الصحيح.

إنه ينبغي أن يعطى الموضوع حجمه الحقيقي، فالذي يحرص على المسلم بلا شك التشبه فيه بالكفار هو الهيئات التي لها خلفيات دينية أو عرقية أو مذهبية أما الأزياء العادية التي يشترك فها

---

(١) رواه البخاري

(٢) محمد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، ص ٣١٩.

جميع الناس بغض النظر عن أجناسهم ودياناتهم فتبقى مباحة للجميع وقد ثبت أن الرسول ﷺ كان يرتدي ما تتيسر له من الثياب كما ذكر ابن القيم[١].

ويفضل أن يتميز المسلم عن غيره في كل أمور حياته المادية والمعنوية، وإذا لم يتقيد باللباس التقليدي فلا حرج عليه.

فإن الداعية إلى الله لا يجد في نفسه حرجا أن يلبس اللباس الذي يساعده في تقويم دعوته، إذ الإسلام لم يحجر عليه، ولم يلزمه بلباس معين، فقد اشترط شروط معيشة في اللباس متى توفرت جاز له ارتداءه، ولو لم يكن يشبه لباس أسلافنا.

ب – بعضهم يبالغ في الاهتمام باللحية ويزدري حالقها بل قد يكرهه ويبطل الصلاة خلفه ويقيم الدنيا ويقعدها من أجلها. نعم اللحية سنة[٢] والمطلوب هو إعفاؤها.

أما هذه الجماهير البائسة فلم يكن لها حق الدفاع عن نفسها ولا المطالبة بكرامتها واستمر الأمر هكذا في أكثر أنحاء العالم وخاصة في العالم العربي حتى أواخر عهد النهضة ومن الجدير بالذكر أن أوربا لم تعرف فكرة التكافل الاجتماعي إلا في القرن التاسع عشر، حيث كان الناس لا يشعرون بأن للفقراء والعاجزين حقا في أموالهم، ولا كانت الدولة ترى أن من واجبها إعانتهم وتوفير العيش الكريم لهم، بل كان بترك تلك الصدقات للناس وإحسانهم، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت فكرة التضامن الاجتماعي تعمل عملها الضيق المحدود في نطاق الهيئات المحلية التي كانت تقوم بإعانة المحتاجين لقاء شروط قاسية من أهمها التنازل عن حقهم في

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم، ج١، ص ٣٤.

(٢) بعضهم يرى أن إعفاءها واجب، ولكن الراجح أنها سنة، راجع مقالا للدكتور نجاشي إبراهيم بعنوان إعفاء اللحية في الشريعة الإسلامية في مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٢١٢ سنة ١٤٠٢/ ١٩٨٢، ص ٧٦.

الانتخابات، فمن كان يتناول معونة من جمعيات التعاون أو من صندوق الدولة كان عليه أن يتخلى عن حقه الانتخابي لقاء تلك المعونة فانظر ما أعجب شأن الإسلام حين كان منذ القرن السادس يعلن ثورته الاجتماعية الكبرى، فيقرر مبادئ التكافل الاجتماعي ما تزال الأمم الراقية في عصرنا الحاضر مقصرة في إدراك شأوه واللحاق بسموه وإنسانيته في أظلم عصور التاريخ حيث كان الإنسان يأكل أخاه الإنسان يأكل حقه، ويأكل كرامته، ويأكل منزلته الاجتماعية، كان الإسلام يعلن للدنيا أن الناس سواسية وأن الإنسان أخوه الإنسان، وأن الفقر والضعف ليس عيبًا يُسقط صاحبهما من كرامة المجتمع وحق الحياة، بل إن لكل إنسان في المجتمع حقوقا خمسة يجب أن تتوفر له مسلما أو غير مسلم عربيا أم أعجميا مواطنا أم غربيا، قوام الحياة الإنسانية وحمايتها يجب أن يقوم التشريع والقوانين والحكومات(١).

هذه الحقوق هي حق الحياة وحق الدين وحق العلم وحق العيش وحق الكرامة وإعداد له على روح التعاون والاجتماع والاعتماد على النفس والتحمل لشدة العيش وشظف الحياة أنه في مكة طواف وسعي يدلان على ثبات على الخير والتفاف حوله حتى نهاية الحياة وإنه في منى جمار ورمي يرمزان إلى مكافحة الشر والرذيلة في الحياة حتى لقاء الله ذلك هو الحج جمعت حكمته ثلاث كلمات من كلمات الله المعجزات ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾(٢).

وهذه الزكاة هي معجزة الإسلام في تشريعه الاجتماعي العظيم وهي سر بقاء المجتمع الإسلامي مئات السنين سليما قويا متماسكا لا تنهره الثورات ولا تزعزعه الأزمات وهي مظهر من مظاهر الروح الاجتماعية التي تتغلغل في تشريع الإسلام حتى لتكاد تمحى فيه روح الانعزالية

---

(١) الإسلام والمعضلات الاجتماعية، ص ٣٧ – ٣٨

(٢) سورة الحج آية ٢٨ .

الفردية ومن المناسب أن نرتد بأبصارنا أربعة عشر قرنا حيث نرى العالم يومئذ يعيش في عالم من الترف والتبذير مستقل عن عالم الفقراء في بؤسهم وشقائهم وحيث كان الملوك والأمراء يعيشون لحساب أنفسهم لا للجماهير وينعمون اللذة والترف من تعب الجماهير لا من تعب أنفسهم وحيث كان رجال الدين أداة مسخرة بيد الأقوياء لا ينصرون حقا ولا يرفعون ظلما ولا ينصفون فقيرا من غني ولا شقيا من حاكم وحيث كانت القوانين كلها تزيد القوى قوة والظالم بغيا من حيث تزيد الضعيف ضعفا وضغطا والمظلوم إجحافا وهضما، كانت روح الفرد هي التي تسيطر على كيان الجماعية، فكل فئة تعمل لنفسها وكل إنسان يسعى لثروته وكسبه ومنفعته.

المجتمع مطالب برعاية أبنائه العاجزين:

إنها الحقوق التي أعلنها الإسلام لكل إنسان على وجه الأرض، وأقام عليها تشريعه وركز في سبيلها جهوده، وأعلن للحفاظ عليها حربه وجهاده، وليست الزكاة إلا بعض ما جاء به الإسلام من تشريع لضمان هذه الحقوق وتوفيرها لكل مواطن، وحتى هذه الزكاة التي هي جزء من تشريع اجتماعي شامل كانت ثورة كبرى في تاريخ الإنسانية، لقد أعلن الإسلام أن الناس متكافلون في الحياة، وأن على المجتمع حكومة وشعبا أن يرعى أبناءه العاجزين عن الكسب، فلهؤلاء حق في أموال الناس وفي أموال الدولة، وأن ضمان حياتهم وكرامتهم من ألزم الواجبات التي يطالب بها الشعب والحكومة على السواء، وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياءهم ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما[1]. وعلى أساس هذا المبدأ

---

(١) الطبراني مرفوعًا، ورواه ابن حزم موقوفا على علي ﷺ.

أعلن أن الزكاة حق لأمته لا عطية، وهي حق للطبقات البائسة المحرومة من وسائل العيش الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾[1].

هكذا نقل الإسلام سعاة البائسين من أن يكون منة تذل كرامتهم إلى أن يكون حقا يأخذونه مرفوعي الرأس موفوري الحرمة، وهي حق في مال الدولة والشعب كحق الموظف في قبض، والحق في توفير معيشته، وحق المعلم في أخذ حاجته وكفايته، وبهذا وضع الإسلام نظام التكافل الاجتماعي قبل أن يعرفه الغرب بأكثر من أربعة عشر قرنا، وبهذا كان مجتمعنا مجتمع التكافل الاجتماعي كالأوقاف والمدارس والمستشفيات والملاجئ الذي سد حاجات الطبقات البائسة ووفر لها كرامتها وإنسانيتها، واليوم ونحن في أشد الشكوى من سوء أوضاعنا الاجتماعية، وفي أمس الحاجة إلى تخلل الأزمات والنهوض بأخلاقنا الاجتماعية، هل لنا أن نخاطب أبناء الشعب ليذكروا هذا الخلق الذي وضع دينهم أساسه قبل أربعة عشر قرنا، خلق التضامن والشعور بروح الجماعة وتمثل آلامها وبؤسها، هل لنا أن نخاطب ضمائر الأغنياء والموسرين ليبرهنوا عن إنسانية كريمة داعية إلى عون المجتمع وتكاتفه ووحدة شعوره وتقارب مستوى معيشته، إن الزكاة ليست ضريبة يدفعها المكلف كرها من غير اقتناع، وإنما هي دليل الحس الإنساني الرفيع فيمن يؤديها طائعا مختارا وعنوان الضمير الديني المرهف الذي يسمو صاحبه في نظر الله ونظر الناس ونظر الحق وهي قبل غيرها الأساس الذي يبنى عليه مجتمع كريم وشعب كريم وحياة كريمة.

أخي المسلم، إن مجتمعنا في حاجة إلى روح إنسانية تملأ نفوس أبنائه قبل حاجته إلى قوانين تملأ دواوين الدولة، إننا في حاجة إلى شعور يستمد من الله سموه وصفاءه ونؤمن بالحق ويخضع له خضوع العابد في محرابه ويثمر في المجتمع بناء وإنشاء قبل أن يكون مظاهرة وادعاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) سورة المعارج آية ٢٤ – ٢٥ .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

حاجتنا إلى فضيلة الصدق: في تاريخ السلف الصالح من صحابة الرسول والتابعين والعلماء والخلفاء يروعك ما تراه بينهم من صدق اللهجة ووفاء الأخوة وقيام بواجب النصح وترحيب بالنقد البريء والموعظة الحسنة مما تشعر معه أنك إزاء أمة لم تخلد في التاريخ بسيف ولا تدمير، وإنما خُلِّدَت بخلق قوي ونفوس كريمة وعقول راجحة وآداب متماسكة.

هذا عمر يقول: "يا أيها الناس اسمعوا وأطيعوا فيقوم إليه رجل ليقول له: لا والله لا نسمع لك ولا نطيع، فيسأله عمر عن ذلك فيجيب الرجل بأنهم يشكون فيما يلبس عمر من ثياب ويطلبون لذلك حسابا عليه ويسألونه من أين لك هذا يا أمير المؤمنين؟ فلا يضيق عمر بطلب الشعب، ولكنه يقدم له حسابه حتى إذا اقتنع الناس بطهارة يد عمر، قال قائلهم: الآن سمعا وطاعة، وهذا عمر نفسه يحكم في قضية فيقوم إليه على ﷺ فيرد عليه ويبين خطأه حتى اقتنع عمر وعدل عن حكمه وقال لولا علي لهلك عمر. ولقد كان عمر يوما مع أصحابه فقال له رجل يا أمير المؤمنين: اتق الله فقال بعض الحاضرين لذلك الرجل أتقول لأمير المؤمنين ذلك؟ فقال عمر دعوه فليقلها.. لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إلا لم نقبلها. بمثل هذا تعرف سر عظمة عصره والجيل الذي كان يعيش فيه.

واجب النصيحة بالأسلوب الشرعي مع مراعاة التلازم بين النصيحة لولي الأمر والدعاء له:

كان سفيان الثوري صديقًا للرشيد قبل أن يلي الخلافة يتردد عليه ويتعهده بالزيارة آونة بعد أخرى فلما ولي الخلافة انقطع عنه سفيان فأرسل إليه الرشيد يطلب زيارته ويعده بأن يغدق عليه

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤ .

العطاء، كما أغدق على كثيرين من العلماء، فما كان من سفيان إلا أن بعث إلى الرشيد بكتاب شديد جاء فيه: من أين لك يا هارون أن تغدق العطاء على الناس، وهو حق الأرملة والمسكين والفقير؟ وما جوابك لربك غدا إذا جاءك هؤلاء يخاصمونك بين يديه ويقولون له: يا ربنا سل عبدك هارون فيمَ منعنا حقنا وأعطاه من لا يستحقه؟[1] فما كاد الرشيد يفرغ من تلاوة الكتاب حتى بكى بكاء شديد وعلم أية نفس عظيمة يتقوى عليها ذلك الرجل العظيم سفيان الثوري.

ولما طلب الرشيد من أبي يوسف القاضي أن يؤلف كتابا في أصول جباية الأموال ونظام الضرائب العامة... وضع أبو يوسف كتابه الخراج تلبية لطلب الرشيد وجاء في مقدمة هذا الكتاب ما يلي: يا أمير المؤمنين إن الله ولله الحمد قلدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب، فلذلك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمست وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه الله على من بناه وأعان عليه، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله، لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، والأجل دون الأمل فبادر الأجل بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل، إن الرعاة مؤدون على ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالعطب وكن من خشية الله على وجَل، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء، القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه، وإني أوصيك يا أمير

---

(١) انظر: كيف نحافظ على نعمة الأمن والاستقرار في بلادنا، د. سليمان عبد الرحمن، صـ٢٩، ط سنة ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.

المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله وألا تنظر في ذلك إلا إليه وله، ثم ختم أبو يوسف هذه المقدمة بقوله: وإني لأرجو إن عملت بما في هذا الكتاب من بيان أن يوفر الله لك خراجك أي مالية الدولة من غير ظلم مسلم ولا معاهد ويصلح لك رعيتك فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم وبالنظام فيما يشتبه من الحقوق عليهم.

ولما استولى الملك الصالح على دمشق اصطلح مع الإفرنج الصليبيين على أن يعفوه ضد أخيه مالك مصر ويعطيهم لقاء ذلك صيداء وقلعة الشقيق وغيرهما من حصون المسلمين ودخل الإفرنج دمشق لشراء السلاح فاستفظع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضي القضاة صنيع سلطان دمشق وأفتى الناس بتحريم بيع السلاح للإفرنج وترك الدعاء للسلطان في خطبة الجمعة وندد بخيانة السلطان للمسلمين، وكان مما دعا به في خطابه، اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك، فاعتقل الشيخ وعزل من مناصبه وصمم على الهجرة إلى مصر ومضى في طريقه فأدركه رسول السلطان يقول له: إن السلطان عفا عنك وسيردك على مناصبك على أن تنكسر له وتقبل يده، فقال الشيخ: ولكن يا مسكين أنا ما أرضى السلطان أن يقبل يدي فضلًا عن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، هذه أمثلة من تاريخنا نستطيع أن نرد إليها سر ما أصاب أمتنا في التاريخ من رفعة وقوة وخلود، ونحن اليوم ما أشد حاجتنا إلى فضيلة الصدق في النصح والجهر بالحق.

أخي المحترم أدب الله في مثل هذه الحالات: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾[1].

---

(١) سورة النساء آية ١٣٥.

وإليك أدب رسوله في مثل هذه المواطن أفضل الجهاد كلمة حق عند جائر[١]. أفليس لك صديق أو أخ أو بنت أو أب أو أم تشعر بأخطائهم وانحرافهم عن سنن الحق؟ فلماذا لا تكون معهم محبا صادقا وفيا تكشف لهم عن أخطائهم برفق وتردهم إلى الصواب بغير احتقار ولا تشهير، وتدلهم على مواطن الحق والخير من غير استعلاء ولا غرور؟ في الحكمة السائرة "صديقك من صدقك لا من صدقك، فلا تغضب من صديقك إذا نصحك، أو من أستاذك إذا أرشدك، أو من أخيك إذا دلك على عيبك، فلست إلا إنسانا يخطئ ويصيب ويستقيم ويتعثر ويميل مع الحق حينا ومع الهوى أحيانا، ولست مهما كبرت منزلتك أكبر من أن تستمع للحق وتنقاد إليه وليس الذي ينصحك مهما صغرت مكانته في نفسك أصغر من أن ينطق بالحق ويدل عليه، وقد تثقل النصيحة على نفسك بحجة الحفاظ على الكرامة فاذكر حين تجمع بك نفسك إلى هذا الطريق الوعر، إن عدالة الله تأبى أن تمنحكم الكرامة لمن يضيعها بيديه، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[٢]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٣].

ليس منا من لا يخطئ ولا ينحرف عن سنن الحق، بل إن فينا من الغرائز والطباع ما يميل بنا إلى الرشد والغي والخير والشر، وليس كل إنسان يعرف خطأه أو يهتدي إليه وبذلك كان من حق المسلم على أخيه أو الأخر على أخيه أن يبصره بعيبه وينصح له في أمره وكما يجب على من رأى الظلم في مسئول أن ينكر عليه ظلمه وبغيه وجب علي من رأى صديقا له يظلم نفسه أو يظلم غيره أن

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة

(٢) سورة هود، الآية ١١٧.

(٣) سورة يونس، الآية ٤٤.

يحول بينه أن يتبرأ من عملهم لا منهم أنفسهم وليس هو إلا كراهة التشهير بالناس تشهيرا يؤدي على العداوة والبغضاء، ويزيد في الفرقة والشحناء، وخامس خطوات النصيحة أن لا تؤدي النصيحة إلى شر أكبر مما تريد إنكاره كإيقاع الفتنة وإيغار الصدور وتفرقة كلمة الجماعة فإن هذه أمور يلحق شرها الكبير والصغير والطالح والصالح، ولا يجوز لإنكار عمل فردي أن تقع في منكر يضر الجماعة، قال رسول الله ﷺ لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لبنيت الكعبة على قواعد إسماعيل، ولجعلت لها بابين بابا يدخل منه الناس وبابا منه يخرجون[1].

فهذا امتناع عن إصلاح في وضع البيت خشية أن يؤدي إلى فتنة الناس في دينهم وهذا هو الفقه في دين الله أن لا تزيل الشر بما هو شر منه وأن لا تدفع الضرر الأدنى بالأعلى وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فإذا استوت لك هذه الخطوات ورأيت النصيحة واجبة كان عليك أن تؤديها برفق وحكمة وأسلوب لا ينظر من ننصحه ولا تبدو أنك متعال عليه معلم له وإلى هذه الآداب أرشدنا الله بقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[2].

ولقد قالوا في وصف رسول الله ﷺ: "أنه ما كان يواجه أحدا بشيء يكرهه"، ذلك أن النصيحة إذا خرجت عن الرفق واللين كانت غلظة وقسوة تنفر القلوب ولا تفتحها وتبعد الناس عن الخير ولا تقربهم إليه.

هذا ما ذكرناه عن النصيحة في مواجهة أزمة التشهير في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى آدابها وشروطها بعد أن اشتجرت العداوات وكثرت الخصومات وساءت التهم وأفرطت الأقلام والألسنة في النقد بحق وبغير حق فهل لنا أن نطمع من الناقدين أن يقفوا عند حدود الحق فيما ينقدون؟ وهل

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة النحل.

لنا أن نرجو من الناصحين أن يبتعدوا عن مجال الشبه فيما ينصحون؟ إن من السهل أن تقول لإنسان أخطأت ولكن من الصعب أن تقول له إنك خنت وأجرمت وسرقت، لقد مرت بنا فترات كانت فيها أعصاب الشباب تدفعنا إلى اتهام خصومنا في الرأي بمثل هذا فالله نشهدك أنا رأينا بأعيننا أخطاء ما فعلتها وكتاب الصحف وخطباء المنابر أن يقولوا ما يصلح الفساد ويقوم الانحراف لا ما يزيد الصفوف فرقة والقلوب عداء بينه وبين ذلك إبقاء على حق الأخوة ودفعا للأذى عن صديقه وعن المجتمع ويوم يتساهل الناس في هذا الحق فيتملق الصديق صديقه ويهمل الأخ حق أخيه عليه في النصح والإرشاد تسوء علائق بعضهم ببعض وتنقلب الصداقة إلى عداوة ويصبح أمر المجتمع فوضى يموج بالشر والإثم.

ولقد أخبر القرآن الكريم أن بني إسرائيل استحقوا اللعنة والتشريد لأنهم كانوا لا يتناصحون: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] .

وليس أدل على رقي الأمة واستقامة ضمائرها من تمسكها بخلق التناصح فيما بينها ينصح الأخ لأخيه والجار لجاره والأب لولده والأستاذ لتلميذه والموظف لرئيسه والمسؤول لأمته فلا ترى حينئذ إلا حقًا محترمًا وفضيلة يعمل بها وثقة تربط بين الناس بعضهم مع بعض فلا خيانة ولا غش ولا اتهام ولا تجريح وإذا خلا المجتمع من هذا الخلق أو ضعف مظهر العمل به فقد انتهت الأمة إلى أسوأ حالاتها من الفوضى والفساد والتقاطع والتدابر والخصومات وقد اضطربت عند كثير من الناس حدود النصيحة التي يجب القيام بها فانقلب أحدهم من النصح إلى التشهير كما انقلب آخرون من المداراة إلى التملق، وفي ذلك ما فيه من شرٍ يربو على الخير وحق يستعمل في باطل حين لا تجدي النصيحة أو ينشأ عنها ما هو أكبر ضررًا أو أكثر سوءا يتحتم عليك أن تداري من تنصحه، حتى يستقيم حاله وتواتي الظروف الصالحة لنصحه ووعظه وهذا هو حد المداراة أما أن تنقلب إلى

مشجع على الشر متظاهر لمن يعمله بالتأييد فهذا هو التملق الذي يمقته الخلق الكريم وتأباه آداب الشريعة وأخلاقها.

لا راحة في الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥، ٦].

... يحذر الله تعالى عباده بوعده الحق. و هو سعادة الصالحين – وشقاء الضالين. ويحذرهم من غرور الدنيا – ومن أن يعبث الشيطان بعقولهم فيهوى بهم إلى النار – وبئس القرار: كما يحذرهم فتنة الدنيا وما يزينه الشيطان في أعين أوليائه من زخارفها: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: ١٤]، ولعمرى ماذا في الدنيا ينخدع به العاقل – وكلها هموم وأحزان وأوهام وأباطيل! !

إن العاقل إذا نظر إلى نشأته في الدنيا رآه مكونـًا من ماء مهين.

فلا تزال تكونه يد القدرة حتى يصير جنينـًا تام التكوين جسد وروحـًا: ثم يهبط إلى هذه الدنيا صارخا باكيـًا كأنه يشعر بما سيلقاه فيها من محن وبلاء – وتعب وشقاء: فينمو ويترعرع في ألم لا يعلمه إلا خالقه.

فإذا صار شابـًا قوى البنية نهض بأعباء الحياة ومشاقها: فهو يعمل – ويسوقه الأمل فيعمل. حتى إذا صار أبـًا وأعقب بنين وبنات – احتمل من المتاعب أضعاف ما كان يحمله وهو أعزب: ولا يزال ذلك رأيه حتى تبلغ به السن أجل الشيخوخة والهرم إن كان ممن قدر له طول الأجل، فإذا وصل إلى سن الحرم واستحوذت عليه أمراض الكبر: فهو يلاقى من المتاعب والأمراض ما لا يعرفه! إلا كل طاعن في السن:

كل هذا والمسكين غارق في بحور أمل الدنيا الكاذب: ولا ينفك في هذا الوهم الباطل حتى يمد إليه الموت يده القاسية . فيقضى على هذه الآمال الفارغة . وهذه الأماني الباطلة:

فإذا حضره الموت انتبه من هذه الغفلة الطويلة . فيرى – وقد فات الوقت وضاعت الفرصة – إنه قد ضحى بعمر طويل في عمل غير نافع: وها هو خرج من دنياه صفر اليدين . صادماً نادماً فلا يجديه ذلك الندم سيد: حقاً لقد خلق الإنسان في كبد . ومشقة وعناء وتعب . من حين يستقر في بطن أمه – إلى حين يستقر في بطن الأرض . بل إلى حين يستقر في دار الجزاء:

إذا فما هي المرحلة التي استراح فيها ابن آدم في هذه الحياة الطويلة:

لا راحة في الدنيا مهما طال العمر – ومهما اجتمع للإنسان فيها من أسباب الغنى والثروة: وسواء في ذلك الصعاليك والملوك: فلقد أودع الله تعالى في كل نفس ما شغلها: ولو أن ابن آدم عرف قدر الدنيا حين أصبح مكلفاً . فعرف أن عمره فترة قصيرة ثم يطوى . وعرف أن ما في الدنيا محض خداع وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئاً – واستعان بنور الدين – وقصر أمله – وقنع بما آتاه الله – و حسب الآخرة حسابها وخالف نفسه وهواه – لو عرف ذلك كله لعاش هادئاً مطمئناً . مستهيناً بمتاعب الدنيا – فرحا بما قدمه من عمل صالح يرجو عليه ثواباً عظيما: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤١]، ونحن من لم يقدر الله تعالى لهم بسطة في العيش – ولا سعة في الثروة . فما عذرنا في الانهماك في حياة حقيرة لا تروى غلة ولا تشبع جائعاً! ! لو أننا كنا من الأغنياء ذوي الأموال الطائلة والضياع الواسعة – لقلنا: إن ما لدينا من متاع الدنيا شغلنا عن العمل لآخرتنا: فما بالنا ونحن من أفقر خلق الله تتشاغل عن الحق بالباطل – وعن الآخرة بشيء لا قيمة له! !

ألا إن الحق أبلج . والباطل لجلج . والطريق واضحة . فأقبلوا على ما ينجيكم غداً من عذاب أليم. واستنيروا بنور الدين فهو يهديكم إلى الصراط المستقيم: فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور:

نسأل الله تعالى ألا يجعل هذه الدنيا أكبر همنا . وأن يخرجنا منها مخرج صدق - و أن يدخلنا دار كرامته مدخل صدق: إنه ولى المتقين؟

الصبر على المكاره:

قال الله تعالى لنبيه الكريم - وصفوة خلقه العظيم: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ**﴾ [الأنعام: ٣٤] في هذه الآية الكريمة بيان من الله تعالى بأن كل رسول أرسله إلى أمة من الأمم لاقى أذى وألماً من قومه وتهزيناً وتكذيباً: ليحمل رسوله الكريم على الاقتداء بإخوانه الرسل السابقين:

قال تعالى: ﴿**فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ألا وإن الحكمة في تعريض الرسل لهذه المكاره . وفى أمرهم بالصبر عليها إفهام لخلقه أن الدنيا دار بلاء واختبار - لا دار مقام واستقرار وأنها محدودة الأجل - مقصود منها صالح العمل:

انظر إلى أبي البشر آدم عليه السلام وما نزل به من الآلام: أخرجه الله تعالى بفتنة إبليس من جنته . وأنزله الأرض يعمرها وأبناؤه - وهى دار الشقاء والعناء: وأذاقه شكل ولده هابيل باعتداء أخيه قابيل:

ثم انظر إلى نوح عليه السلام وقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما: وهم يهزءون به. ويسخرون منه . فلا يزيد على أن يقول: ﴿**إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨**﴾ [هود: ٣٨]، ولما يئس من إيمانهم أمر بأن يصنع السفينة فكانوا إذا مروا عليه ضحكوا منه . وقالوا: كنت بالأمس نبياً - وها أنت اليوم نجاراً: فذاق من الألم ما ضاق به صدره .

وزاد ألمه أن غرق ابنه وهو ينظر إليه ولا يستطيع له إنقاذاً إذ قد غلب عليه الشقاء . فاحترق قلبه . وناجى ربه، فقال له ربه: ﴿**يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦**﴾ [هود: ٤٦]، ثم انظر إلى شيخ المرسلين - وجد المسلمين - إبراهيم عليه السلام - وما تجرع من القصص والآلام: فقد اختلف مع أبيه حتى هدده أبوه

بالرجم والتعذيب . فاعتزله متألمـًا: ثم انظر إلى ما عوقب به من قومه حين كسر أصنامهم – حيث أوقدوا له ناراً آلام

والاستهزاء – والإيذاء في نفسه وفى من تبعه من المستضعفين حتى ائتمروا على قتله: فهاجر إلى المدينة تاركا وطنه وعشيرته: و في فراق الوطن والأهل والعشيرة آلام لا تقل عن إزهاق الروح: فإذا نظرت إلى ما لقيه في حروبهم وقد جرحوه وكسروا رباعيته حتى سال دمه فلم يزد على أن قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون: إذا نظرت إلى ذلك وإلى غيره من صنوف المكاره التي لقيها ﷺ وهو صابر – علمت أن الدنيا دار ممر لا دار مقر: ولو كانت دار مقام و اطمئنان لكان أولى بذلك أنبياء الله ورسله .

فالعاقل من يحرص على عقيدته الدينية كما يحرص على روحه فيحصنها من الزيغ والضلال. ويقوم بما فرض عليه. ويتجنب ما نهى عنه . متحملا نكبات الزمان التي هي من طبيعة الدنيا . حتى يلقى ربه . وهناك دار الراحة. والنعيم المقيم:

جعلنا الله من الصابرين على البأساء والضراء – الطامعين منه في حسن الجزاء . إنه قدير على ما يشاء؟

كيف يجمع المرء بين سعادتي الدنيا والآخرة؟

قال الله تعالى: ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾**﴾ [النساء: ١٣٤]، إن الله ﷻ لم يجعل طلب الدنيا وما فيها من نعمة مانعـًا من طلب الآخرة . فقد يعمل الإنسان للدنيا وهمه أن يتزود منها للآخرة. لأن الدنيا مزرعة ومطية الآخرة:

والذى يخاف منه الإنسان أن يصرف كل قوته في طلب الدنيا .

ناسيـًا أو متناسيـًا أمر الآخرة: فإن هذا يجعله عبداً لدنياه ويحرمه نعيم أخراه:

قال تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾**﴾ [الشورى: ٢٠]، فانظر أيها المؤمن كيف جعل الله من تجرد لطلب

الدنيا لذاتها محروماً من نصيب الآخرة،! ! وكيف جعل من طلب الدنيا ليتزود منها للآخرة حازاً لخيرات الحياتين:

ورموه فيها ليحرقوه انتقاماً لآلهتهم: وهو صابر محتسب: ثم انظر إليه وقد أمره الله تعالى بذبح ابنه إسماعيل: فأقدم على ذلك وقلبه يذوب حسرات وينفطر حزناً: لولا أن الله لطف به لكان من الهالكين المحزونين: ثم انظر إلى موسى عليه السلام وقد زج في التنور وهو رضيع: ثم وضع في التابوت وألقى في النهر – وما لاقى من الهرب من فرعون – حيث اشتغل أجيراً يرعى الأغنام . وما لاقى من مخالفة بني إسرائيل وعصيانهم . حتى ألقى الألواح غضباً:

وكل هذه المكاره احتملها كليم الله صابراً محتسباً، ثم انظر إلى روح الله عيسى عليه السلام وما لقيه من اضطهاد بنى إسرائيل قومه . حتى ائتمروا على صلبه وأسلمه يهوذا الإسخريوطي أحد تلاميذه للأعداء مقابل دراهم معدودة ولولا لطف الله به ورفعه إليه وإلقاء شبهه على يهوذا السكان من الهالكين المصلوبين و لكنه قد نجاه الله . وأوقع في الصلب ذلك الغادر يهوذا: جزاء له على غدره برسول الله عيسى، قال تعالى: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ [النساء: ١٥٧]، نعم ﴿**بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾**﴾ [النساء: ١٥٨]، ثم انظر أخيراً إلى نبينا صفوة الخلق – وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ – وما لاقاه من قومه من التكذيب.

الخاتمة

الإسلام دين عطف ومحبة، دعا إلى حب المتعاونين على جلب الرخاء وحبب في التفاؤل والتراحم لكي يخلو المجتمع من ضغوطات الحياة وأزماتها، وقد قام الإسلام بإرساء ذلك لكي يحقق الأمن والرخاء وبنى أسس المعاملة الحسنة التي تنطوي على حب الخير للناس والتوسعة على المجتمع والسعي لتوفير الراحة للإنسانية، أمر المسلم أن يكون سمحا إذا اشترى سمحا إذا اقتضى وإذا اكترى، وأمر التجار أن يكونوا سمحاء في عملهم نصحاء لا يطففون الكيل ولا يبخسون الميزان، ولا يتلاعبون في الأسعار، ولا يعملون على الاحتكار، ونهاهم أن يحلفوا ليزيدوا في السعر أو ليقتطعوا مال امريء بغير حق أو يحسِّنوا السلعة ليستغلوا، أو يمدحوا ليضلوا، وأن ينتهزوا الفرص ليحتكروا السلع ويعملوا على إخفائها ليزيدوا في ثمنها ويفحشوا في غلائها، بل أمر التاجر إذا أراد أن يكون صالحًا صدوقًا يحشر مع النبيين والصديقين والصالحين، أن يبيع الشيء بسعر يومه ولا يتربص الغلاء في غده، وقال له من باع الشيء بسعر يومه فكأنما قد تصدق به، وبين له الدين فحش من احتكر الطعام واختزن حاجات الأنام ليأكل من السوق السوداء، وليملأ بطنه حراما من الغلاء وجعل الإسلام ذلك من أكبر الإثم وأعظم الوزر حتى لو أراد أن يتوب من تعامل بالسوق السوداء، واكتسب من الغلاء فتصدق بتجارته ولم يكن ذلك كفارة لذنبه، قال رسول الله ﷺ: "ومن احتكر على المسلمين طعامهم أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن له كفارة"[١].

والاحتكار حرام شرعًا، وأن رفع الأسعار واستغلال الظروف ليس من صفات المؤمن الذي يحب الخير للناس جميعًا أن يبيع الأشياء بأزيد من التسعيرة، فلا تقره الشريعة، وهو باب من أبواب السحت والحرام وأكل بالباطل لأموال الناس والذين يبتزون عن طريق السوق السوداء ويبيعون

---

(١) رواه البخاري.

بالغلاء وإنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا، وإذا كنا نقول للتجار لا تبيعوا بأزيد من التسعيرة فواجب الأفراد كذلك ألا يشتروا بأكثر من السعر المقرر وأن يتعاون بعضهم مع بعضهم في سبيل تنفيذ التسعيرة الرسمية، فإن ذلك التعاون يكبح جماح التاجر ويوقفه عند حده ويمنعه من شرهه، ومن واجبنا نحن المستهلكين أن ندفع هذا الظلم المبين عن طريق التكاتف والتساند لإيقاف تزايد الغلاء ومحاربة السوق السوداء عن طريق التمسك بالتسعيرة والإضراب عن معاملة كل تاجر يبيع في الظلام ويخالف التسعيرة العامة ذلك هو الدواء الناجح والسيف القاطع.

ومن خلال ما سبق عرضه في البحث نقول باختصار: إن أهم الأحكام الأساسية التي يقدمها القرآن الكريم فيما يتعلق بالمظهر الاقتصادي لحياة الإنسان هي ما يلي:

أولًا: يعد القرآن الكريم بالسلام والنعم الذي يتبعون الكتاب، وبالفاقة للذين يخالفونه، ويلاحظ في الآية نفسها كلمة المعيشة المتأتية من المعنيين (البقرة ١٤٦) .

ثانيًا: أن القرآن كتاب الحياة لا ينص على أن قطف ثمار الحياة لا يتم إلا بعد الموت، ولا يغلفها بغموض روحاني، فاتباع الكتاب يجعل الحياة الدنيا غنية اقتصاديا وعدم ممارسة تعاليمه يجعلها فقيرة. إن حالة الشعب الاقتصادية تشكل امتحانا عمليا لحقيقة التوجيه المنزل وصحته وخالية من الضغوطات والأزمات.

ثالثًا: بما أن النظام الاجتماعي التخصيصي في القرآن يعد بالحياة العزيزة فالنهج اللاقرآني ينتج الخلل في الميزان الاجتماعي الاقتصادي، وهذا يعني غضب الله، وفي سورة النحل (الآية: ١١٢): ﴿**وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾**﴾ . فالله يضرب مثلا عن شعب كان يعيش بسلام وأمان في جلب الثراء من كل مكان، وما إن جحدوا نعمة الله، أي أنهم عاشوا على نهج بشري بحت حتى إنهم صاروا في حالة الجوع والخوف.

رابعًا: جاء في القرآن أن من كانت حياته في الدنيا فقيرا فتزداد فقرا في الآخرة ضغوطا وأزماتٍ كما في الدنيا، وجاء في خلاصة ذلك سورة طه آية ١٢٤ ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ وتنتهي الآية بقوله ﷻ: ﴿**وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾**﴾ .

خامسًا: أن الأزمات والضغوطات والمناقب الأخلاقية تسير جنبًا إلى جنب في القرآن، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض قال تعالى: ﴿**وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾**﴾ [الزُّخرُف: ٨٥]، فالسماء في القرآن تعني ما تعدى الكون، والأرض تعني عالم الإنسان الأزمات الضغوطات الاقتصادي الاجتماعي، فالآية تشير إلى أن الشرائع الإلهية المطبقة على ما تعدى الكون يجب أن تسري على حياة الإنسان الاقتصادية كي يتسنى له أن يحقق ازدهارا شاملا ومتوازنا، ويمكن اعتبار السماء أيضا ينبوع القيم الأزلية، ففي هذه الحالة تعني تلك الآية أن حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية يجب أن تتوافق والقيم الأزلية التي يهبها إياها الخالق، فكيفما جادلنا تفسيره نجد في النتيجة معنى واحدا، وهكذا فالتوحيد وهو أحد المبادئ الأساسية في الإسلام يعني حياة الإنسان الاقتصادية يجب أن ترعاها شرائع الله بنفس الطريقة التي ترى فيها الحياة الأخرى، وهناك مبدأ أساسي آخر في الإسلام هو الصلاة، ويمكن أن نجد فكرة واسعة عنه من سورة هود الآية ٨٧ حيث جاء: ﴿**قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾**﴾ . وهنا تبدو الصلة القوية التي تربط الصلاة بالحياة الاقتصادية بالأزمات والضغوطات، فقد جاء فيه توجيه يرمي إلى بناء منهج اقتصادي سليم بما في ذلك عرض جلي لما يمكن وراءه من أغراض فسورة هود تؤكد قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾**﴾ [هود: ٦] . وفي سورة الإسراء الآية ٣١ قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾**﴾ .

ليس ثمة ما هو أوضح وأقوى من العبارات التي تؤول إلى تحمل تبعة توفير المعيشة للبشر، ومع كل ذلك نرى من جهة أخرى أن مئات الألوف يموتون والملايين يتضورون جوعا وهل هذا يعني أن الله لم يقم بوعده بعد تحمل المسئولية؟ كلا هذا غير معقول، فكيف إذن نوفق بين النقيضين؟ تبين لنا السورة السادسة والثلاثين في آياتها الـ ٤٧ أنه حيثما يتعلق الأمر بالشئون البشرية فتبعة الله مبرأة بصورة مباشرة . وقد جاء في الآية: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾**﴾ [يس: ٤٧] . وفي الإجابة يقول الله ﷻ ردا على ذلك أنهم مخطئون بهذا التفكير لأنه لا يطعم الجياع مباشرة بل بواسطة تطبيق النظام الاجتماعي الذي يضع الشرائع السماوية موضع التنفيذ ما هي العلاقة الودية بين الفرد والنظام الاجتماعي في الإسلام، هناك ميثاق غير مكتوب بين النظام الاجتماعي للأفراد وحكمة الأساس أن يسلم الإنسان إلى الله حياته وممتلكاته مقابل الجنة، وقد جاء في أهم مميزات هذه الجنة في السورة العشرين "إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى، وبمعنى آخر لم يحرم أحد في جنة الأرض من ضروريات الحياة، يقوم النظام الاجتماعي مقام الله ليحقق مسئولياته في تأمين منطلقات الحياة، فبموجب العقد غير المكتوب المشار إليه يقوم النظام الاجتماعي مقام الله لتحقيق مسئولياته في تأمين متطلبات الحياة الضرورية لكل فرد، فالنظام الاجتماعي في القرآن يهدف إلى أن يؤمن الضروريات لكل فرد حتى يتحرر ويصبح قادرا على تنمية شخصيته ضمن النظام الاجتماعي.

سادسًا: لقد أعطى القرآن بعض المبادئ الأساسية بغية تركيز هذا النظام الاجتماعي، فالمبدأ الأول هو أنه لا يجوز أن تصبح الأرض ملك لشخص واحد لأن الأرض إنما هي إنتاج ويجب أن يفيد منها المعوزون بالتساوي قال تعالى: ﴿**۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا**

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فُصِّلَت: ٩ - ١٢] .

أما المبدأ الثاني فهو أنه لا يجوز جمع الثروة، جاء في سورة التوبة رقم ٩ آية ٣٤ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ وهذه الآية تأتي متممة للسابقة إذ عندما لا توجد أموال فائضة ولا يعود ثمة من مجال لجمعها.

والمبدأ الثالث هو أن الثروة يجب أن تتداولها جميع طبقات المجتمع وليس الطبقة العليا فقط تماما كما تجري الدماء في جميع عروق الجسد.

سابعًا: الإسلام يعارض احتكار المال وقد جاء في القرآن الكريم هذا المبدأ بالإشارة إلى المواضع المتعلقة بالإنفاق في الآية السابعة من سورة الحشر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧] .

ثامنًا: الإسلام يشجع توزيع الثروة بين أكبر عدد من الأيدي وهذا صريح من الحصص المحدودة في قانون الميراث بالنسبة لجميع أقارب المتوفى.

هذا، وبالله التوفيق وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث باللغة العربية..... ١٦١٨
ملخص البحث باللغة الإنجليزية..... ١٦١٩
مقدمة..... ١٦٢٢
التمهيد: الحكمة من التعامل في ظل الضغوط، وكيفية التعامل. ١٦٢٥
الاستمتاع بالرحلة: ١٦٢٦
النظر إلى الفرص: ١٦٢٧
التخفف من الماديات:..... ١٦٢٧
التواضع في الطموحات: ١٦٢٨
الحياة بالإيمان:..... ١٦٢٩
الأمل في الله:..... ١٦٢٩
الفصل الأول: أنواع الأزمات والضغوط، وآلية معالجتها. ١٦٣٤
المبحث الأول: أزمة التلاعب بالأسعار ومواجهتها في ضوء الإسلام:..... ١٦٣٤
المبحث الثاني: ضغط موت عزيز..... ١٦٤٠
المبحث الثالث: أزمة المرض وضغطه ١٦٤١
المبحث الرابع: أزمات العنوسة وغلاء الأسعار..... ١٦٤٢
المبحث الخامس: الضغوط المالية..... ١٦٤٥
المبحث السادس: الضغوطات والأزمات الاجتماعية: ١٦٤٦
المبحث السابع: الأزمات العقلية:..... ١٦٤٧
الفصل الثاني: استراتيجيات التعامل مع ضغوط الحياة:..... ١٦٤٨
المبحث الأول: مواجهة التعامل مع ضغوط الحياة. ١٦٤٩

المبحث الثاني: الحكمة الإلهية في العطاء والمنع:..... ١٦٥٣
واجب المسلم حال العطاء والمنع:..... ١٦٥٨
الفصل الثالث: آليات مواجهة الأزمات والضغوط..... ١٦٥٩
المبحث الأول: ترتيب الأولويات وأثره وأهمية التخطيط في حياة الأفراد والمجتمعات . ١٦٥٩
تعريف فقه الأولويات:..... ١٦٦٥
ما أسباب ظهور فقه الأولويات:..... ١٦٦٦
مراعاة فقه الأولويات في واقعنا المعاصر:..... ١٦٦٦
العقيدة أولى بالتقديم من الشريعة:..... ١٦٦٧
مظهر الاختلال عند المتدينين بفقه الأولويات اليوم:..... ١٦٦٩
التيسير أولى من التعسير: ١٦٧٨
المبحث الثاني: أثر الفرد في نهضة الأمم لمواجهة الأزمات والضغوط النفسية والمالية . ١٦٨١
الوقاية من الغرور ومرض الاحتقار:..... ١٦٨٥
المجتمع مطالب برعاية أبنائه العاجزين:..... ١٦٩٥
واجب النصيحة بالأسلوب الشرعي مع مراعاة التلازم بين النصيحة لولي الأمر: ١٦٩٧
لا راحة في الدنيا:..... ١٧٠٣
الصبر على المكاره: ١٧٠٥
كيف يجمع المرء بين سعادتي الدنيا والآخرة؟..... ١٧٠٦
الخاتمة..... ١٧٠٨
فهرس الموضوعات..... ١٧١٣

تم بحمد الله تعالى